أنا وبغداد

الكتاب: أنا وبغداد

الكاتب: حكمت شبر

الطبعة الأولى: 2016
جميع الحقوق محفوظة

الناشر: دار الزمان
للطباعة والنشر والتوزيع

فايبر وواتس آب:
00964 772 4223169

موبايل: 00964 750 3598630

E-mail: zeman005@yahoo.com
E-mail: zeman005@hotmial.com
Website: www.darzaman.net

الإخراج الداخلي: **دار الزمان**
تصميم الغلاف: **م. جمال الأبطح**

Copy Right © Dar Zaman Publishing
لا يسمح بطباعة هذا الكتاب أو تصويره أو نسخه
إلا بإذن خاص ومسبق من الناشر
All right reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted.
without permission in writing from the publisher

حكمت شُبر

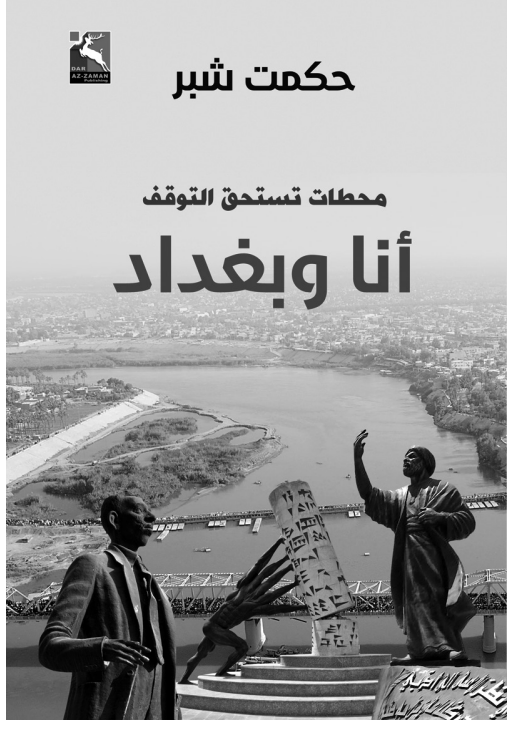

محطات تستحق التوقف

أنا وبغداد

مدخل

قررت مواصلة دراستي الأكاديمية في بغداد، بعد أن رفض والدي فكرة سفري إلى لندن للدراسة. قررت أو أوطن نفسي، رضيت ام أبيت، لمواصلة حياتي في بغداد عاصمة العراق الحبيبة.

كنت بالرغم من الظروف المعقدة التي كان يمر بها بلدي عازماً وبإرادة صريحة وواضحة أن أواصل العيش في تلك المدينة التأريخية، عاصمة الخلافة العباسية، ورمز ثقافة وتطور العراق بمراحله التأريخية المختلفة.

نقلت كل ما أملكه من سلبيات وإيجابيات من مدينتي التأريخية هي الأخرى النجف، مرقد الإمام علي (ع) وعاصمة الشيعة في العالم. نقلت معي في أهابي ما حلت عليه من ثقافة في مدينة الثقافة، ومن تمرد تطور معي في مراحل النضال الأولى، ومن عادات سقيمة حاولت بكل وعي أن أقاومها وأقضي عليها، متنكباً في ذلك طريق الحرية والحق والسير في هذا المنهج مهما لاقيت وسألاقي من مقاومة من الأطراف الواقفة أمام تطور بلدنا للحاق بركب الحضارة، سائراً قدر الإمكان على طريق الإمام علي (ع) الذي قال، لا تستوحشوا طريق الحق على قلة سالكيه.

قسمت هذا الكتاب إلى مرحلتين: الأولى سنوات الدراسة الأكاديمية في كلية القانون حتى مغادرتي لاستكمال تحصيلي العلمي

في الخارج. والمرحلة الثانية والتي تمثلت في إقامتي الطويلة في بغداد بعد الحصول على درجة الدكتوراه.

كانت بغداد تختلف عن بغدادنا الحالية في خمسينيات القرن الماضي، اختلفت بغداد في وقتنا الحاضر في أمور كثيرة بيئية حيث كانت المدينة تتمتع بتمايز الفصول الأربعة، الشتاء البارد، والربيع الزاهي والصيف الحار نهاراً والبارد ليلاً بسبب كثرة البساتين المحيطة بها، والتي تحولت بعد سنين الخمسينيات إلى غابات من البناء الكونكريتي المتمثل بالبيوت والعمارات الحديثة وقضى على رئات التنفس لتلك المدينة الناعمة بجمال حدائقها وبساتينها المثمرة وغير المثمرة وشواطئ دجلة النهر العريض، الذي اختزل بعدئذ في عهد صدام إلى النصف لتبنى عليه العمارات والقصور العائدة (للقائد) وجماعته وأقاربه وضباطه والأصفياء من خلانه ومريديه.

وكانت بغداد الخمسينيات تزهو بحركتها الفنية في مختلف فروع الفن من رسم ونحت وشعر ومسرح، فقد عرفت بغداد عمالقة الفنانين، جواد سليم، خالد الرحال، اسماعيل الشيخلي وزوجته سوزان، كاظم حيدر ورهط كبير تخرج من المعاهد الأوربية، فرنسة، إيطاليا، انكلترة.

كما عرف المسرح فنانين كبار، يوسف العاني، سامي عبد الحميد، زينب، ناهدة الرماحي، وكانت فرقة المسرح الحديث هي الأولى التي تبنت الأفكار الحديثة والتقدمية فقدمت آنذاك مسرحيات لأفضل الكتّاب العالميين، بريخت، شكسبير وغيرهم. كما كان يوسف العاني مجيداً ورائعاً فيما كتبه ومثّله من مسرحيات (لو

بالسراجين لو بالظلمة)، (أني أمك ياشاكر) وغيرها من المسرحيات المعبرة عن حياة الناس وبؤسهم.

مسرحية قدمها فنانون عراقيون في الخمسينات

وكان سينمات بغداد تزهو بأفضل البنايات المبردة كسينما غازي، روكسي، ركس، الخيام، الحمراء الصيفي والشتوي، النصر. وكانت تعرض أحدث وأفضل الأفلام الحديثة وذلك لارتباطها المباشر بشركات إنتاج وإخراج الأفلام الأمريكية والعربية، وكانت مرتعاً للعوائل البغدادية المثقفة، التي كانت تؤم (لوجات) تلك السينمات بدون تحفظ. كان المجتمع العراقي أكثر حداثة من مجتمعنا الحالي، فالسفور لدى النساء سلوك لا تؤاخذ عليه المرأة آنذاك كما يجري حالياً من قبل المتدينين المتشددين. الذين حبسوا النساء بين جدران المنازل فحرام على المرأة أن تتجول بدون غطاء رأس ومع محرم، حتى لا يصاب الشباب بالإغراء ويقعون فريسة الإنحراف والتدهور، كما تدعي العقول المتخلفة.

كانت معارض الرسم والنحت تعرض سنوياً خيرة الإنتاجات للرسامين الرواد والنحاتين الأوائل. وكانت مدارس الرسم الكلاسيكية، الإنطباعية، الرمزية وابداعات مختلفة للفنانين الأوائل، الذين زيّنوا حياة البغداديين بإنتاجاتهم المبهجة والجميلة.

الفنانين الروادالرسامين والنحاتين الأوائل

وكانت الحركة السياسية في أوج تقدمها بالرغم من الموانع والاختناقات التي كانت تحدث من آن لآخر من قبل الحكام الرجعيين الواقفين في وجه التطور الفكري والسياسي إلا أن بغداد عرفت الأحزاب العلنية والسرية، منها الحزب الديمقراطي، الاستقلال، الجبهة الشعبية حتى ثورة 1958 والأحزاب السرية، الشيوعي، البعث، الديمقراطي الكردستاني.

كانت الحياة زاهية وجميلة في سنين الخمسينيات، وكنا نحن شباب ذلك العهد نحمل شعلة التقدم ونسير بها في احتفالاتنا ومظاهراتنا في مختلف المناسبات. ويحيا أهل بغداد في بحبوحة من الرفاه والتقدم في مختلف الأصعدة.

1

كنت في غاية الاثارة وأنا استعد لمغادرة مدينتي، التي بالرغم من كل ما عشناه من تناقضات اجتماعية وسياسة ومعاناتنا اليومية في مدينة ترفل بالتخلف الاجتماعي والأفكار الرجعية والعادات السقيمة، إلا أنني أحببت تلك المدينة. لكني لم أكن حزيناً وأنا أودعها إلى غير رجعة وكان هذا القراراتخذته بعد تفكير عميق، فلم يدر بخلدي أنني بعد إكمال دراستي سأعود للعيش مرة أخرى في تلك الحارات الضيقة، والأفكار البالية والضغط النفسي والاجتماعي من لدن المتخلفين، وهم يطاردون الشباب لأسباب جنسية وسياسية ودينية.

النجف الاشرف في الثلاثينات

كانت المدينة تعج بالمتناقضات، فبالرغم من ضيق المجالات على مختلف الأصعدة، فليس هناك من نوادي ثقافية أو اجتماعية عدا منتدى النشر ومن بعدئذ الرابطة الأدبية، وهي مقتصرة في اجتماعاتها والمنتسبين إليها على رجال الدين والمعممين، الذين كانوا بعيدين عن أجوائنا نحن الطلبة نخبة المجتمع المتطلعين إلى عوالم

تختلف عن عالم الدين الضيق وتلك المنتديات الجافة في أجوائها ومريديها.

كانت المدينة لا تملك نادياً ترفيهياً سوى نادي موظفي المدينة والمعلمين فيها، ولا مجال لنا لدخول ذلك النادي، المجال الوحيد الأخضر في المدينة الرمادية المكسوة دائماً بالأتربة، فالمدينة محاطة بالصحراء من كل جانب فكيف لا تكون متربةٌ ورمادية في كل مجالاتها، بناياتها بشرها نسائها المكسوات على مدار السنة بالسواد والعتمة الاجتماعية والفكرية.

النجف الأشرف قديماً

كانت المدينة مباحة للرجال فقط، فالنساء لا مجال لهن بالخروج والتنزه أو حتى رفع الحجاب عن الوجوه فلا تعرف في ظل ذلك السواد المبهم أن صاحبته حسنة الوجه أم قبيحة، بل تفتح لك المجال للتخيل ماذا وراء ذلك الحجاب أهو وجه باسم وشاب أم إمرأة قبيحة وأخرى شمطاء. فالكل متساوين تحت السواد، كما هي مدينتي متوارية تحت الأتربة التي تعشعش في ثناياها وفي خلاياها طيلة السنة فليس بمقدورنا أن نزيح تلك الأتربة، كما لم نستطع بالرغم من كل ما قمنا به من تظاهر وتمرد أن نقضي على الأفكار السوداء والرمادية لتلك الرؤس المليئة بكل ما يقرف ويفرز من توجهات منحرفة أو رجعية، لا تقبل

بالجديد، الذي نريده لمجتمعنا البائس والمعذب، والذي يعيش أجواء القرون القديمة من عادات سقيمة.

كان الفقر هو السمة المهيمنة على مجتمع النجف في سنين الأربعينيات والخمسينيات مع شريحة صغيرة من التجار وأصحاب المهن، المتعيشين على زوار الإمام من أجانب، فرس وهنود وباكستانيون، وبقية السكان يهيمون وسط الفراغ الفكري والبطالة المتفشية وهناك فئة أخرى تعيش على حساب الأموات التي تُجلب بالعشرات يومياً للدفن بجوار الإمام علي (ع)، وفئة طلبة المدارس الدينية من خارج القطر وداخله، الذين يعيشون في مدارس ضيقة في محلتي العمارة والحويش، ويستلمون مخصصات قليلة من المراجع الدينية، وأذكر أن العديد منهم كانت لديهم عصي صغيرة يستلمون بها أقراص الخبز، ويحفر عليها الخباز الأرقام حتى تنتهي العصاة، لتستبدل بأخرى، وهكذا كانت المدينة لا يزينها إلا المواكب الحسينية في مناسبات ذكرى وفاة الأئمة، علي والحسين خلال شهري عاشوراء وصفر. فنرى السواد يعم كل بيت وفراغ في جدران المدينة، لتتشح طيلة الشهرين بسواد على سواد أفكار من يروجون للعادات السقيمة، ويعتبرون كل ما يسر من موسيقى واحتفالات وغناء محرّم تحريماً مطلقاً.

في هذه المدينة نشأت وترعرعت وها أنذا أجد نفسي في طريق يقود إلى الحرية، يأخذني إلى مدينة الحلم. إلى بغداد الحبيبة، التي كنا في العطل نؤمها، يصرخ في دواخلنا الفرح لامتلاكنا أياماً من الحرية نزور فيها مجالات الطرب والأنس ونقضي الأوقات الحرة في

مدينة تعج بالسينمات والملاهي، ونحن المحرومون نطفئ الحرمان والكبت التي نعيشها في مدينة الملح المكللة بالسواد دائماً.

كانت ساعة الوداع مع والدتي حزينة، فلم أراها يوماً دامعة العين. كانت إمرأة قوية جداً، وكانت معروفة في صلابتها، وهناك من كان يدعوها من الأقارب (بالشيخة) وهي في حقيقة الأمر تستحق هذا اللقب، فقد كانت زعيمة في مجتمع عشائري، وهي شقيقة شيخ عشيرة الرماحية، الذي كان يلجأ إليها دائماً للإستفسار، وحتى لاقتراض النقود، وكانت ترعى فقراء المحلة وتكسوهم في مناسبات الأعياد والزيارات الدينية.

كانت الوالدة هي المسؤلة بشكل مباشر عن تربيتنا ورعايتنا داخل الدار بل حتى خارجه، فالوالد لم يكن يهتم بموضوع التربية، فالتجارة كانت همه الأول والأخير، والعلاقات الاجتماعية، وعلى العموم فالنساء في مجتمعنا هن المسؤولات عن تربية الأولاد، ولعل تفرغهن في الدار هو السبب المباشر لتلك الرعاية الأمومية.

كانت لتلك المرأة مواقف مشهودة في نشئتنا ودعمنا وتكوين شخصيتنا. فقد كانت بالرغم من عدم اتقانها القراءة والكتابة سنداً لنا في تكملة دراستنا وتحصيلنا على الدرجات العلمية وكأنها كانت ترى المستقبل للعلم والكفاءة لكل أبناء جلدتنا، بالرغم من مواقف الوالد التي كادت أن توقف تقدمنا في الدراسة كان رحمه الله يقول ما الفائدة من الدراسة والوظيفة، التي سوف لن تدر عليكم ما يكفي للعيش وامتلاك دار وسيارة وتربية الأولاد، النقود في الحياة هي الأساس لكل ما يهم الإنسان من أمور حياته ورفاهه وسعادته. كان يحّرضنا على ترك

الدراسة بعد أن تعلمنا القراءة والكتابة وأكملنا دراسة الأبتدائية. إلا أن الوالدة، ولا أدري من أين تعلمت كلمات مهمة نسبت للإمام علي (ع)، تقول المال ليس كل شئ في الحياة مرددة مقولته المعروفة، ما اجتمعت ثروة إلا عن بخل أو حرام. وأغنى الغنى العلم وأفقر الفقر الجهل. لعلها تعلمت تلك الحكمة من المجالس الحسينية التي تقيمها عدة مرات في السنة في ذكرى استشهاد الإمام الحسين (ع) والإمام علي، وما تقوله في تلك المناسبات قارئات الذكر من الملالي.

كنت في مراهقتي على خلاف دائم معها بسبب تمردي الدائم على الأوامر المحددة لحريتي في الدخول والخروج خصوصاً في الليالي، على الرغم من إنعدام وسائل الراحة والرفاه في مدينتي الفقيرة بكل شئ عدا اللطم والحزن أغلب السنة.

كانت وفي المظاهرات التي كنت أشترك فيها تقف موقف المعادي وأحياناً الناصح خوفاً عليّ من القتل أو الاعتقال وفي عدة مرات، كانت تقول إجلس في الدار وسوف أذهب لأحل مكانك في التظاهر.

ولعل من مواقفها الشجاعة ما حصل في معاركنا القبلية مع إحدى العشائر النجفية، المتهمة بقتل ابن عمي. فقد وقفت موقف الأبطال تشجعنا وأخوالي على أخذ الثأر في الوقت الذي هرب فيه أهل القتيل إلى بغداد هرباً من المواجهة مع تلك العشيرة تاركين الميدان لنا نحن أبناء العم ووالدتي وأخوالي لمقاومة أولئك النفر العتاة.

ولن أنسى موقفها وهي تشجعني على الاستمرار في العمل الوطني بالرغم من مطاردة الأمن وشبح السجن الذي كان يلاحقني في سنين دراستي في كلية الحقوق.

كانت تلك القامة القوية والدتي العزيزة تبكي وهي تودعني، ولم أستطع امتلاك نفسي إنفجرت في بكاء حار معها مشاركة ولعلها عارفة بما تخبئه لنا الأيام. كانت الوالدة تقول أنك خارج بدون عودة لهذه الدار. وهذا ما حدث فعلاً فلم أعد لسكني تلك الدار بل هربت منها ومن مدينتي إلى بغداد حلمي وحلم كل نجفي يرى مستقبله وحياته في العمل والنضال السياسي في المدينة، عاصمة النور بالنسبة لمن عاش في دياجير مدينة متخلفة.

بغداد الحلم، كان ذلك حقيقة كبيرة نعيشها نحن الفتية، تلك المجموعة من المراهقين الأصدقاء. كنا نجتمع في الأماسي نحن الأخوة الثلاثة مع شلة منتخبة من الأصدقاء، في تلك الغرفة الكبيرة على سطح الدار. كنا خصوصاً في ليالي الشتاء نجتمع بعد العشاء لشرب الشاي والسهر المتواصل في كل ليلة، مع وديع ومهدي شلاش، وصاحب (البور). أطلق هذا اللقب على صديقنا العزيز صاحب، صديق العمر الذي تجاوزت صداقتنا معه الخمسون عاماً. أطلق اللقب الإنكليزي لكلمة فقير على ذلك الصديق المنكّت والظريف مهدي شلاش، حيث كانت حصته من الأغطية (إيزارٌ) قديم في الوقت الذي توزع علينا البطانيات واللحف الجديدة بيننا.

كان حديثنا المتواصل والمتواتر عن بغداد، مركز طموحنا وملتقى أحلامنا وأمانينا. كنا نحن المحرومون من كل متعة أو فرحة أو إنطلاقة، فلم يكن لدينا أي مجال للتمتع بمشاهدة فيلم أو سماع أغنية وموسيقى. وكان الراديو محرماً علينا بموجب فتوى دينية، باعتباره مفسدة للأخلاق، تصوروا الموسيقى التي تجعل الإنسان

بأفضل حالاته وتخلق له عوالماً وردية يعيشها، تحولت في منطق المتخلفين إلى فسادٍ ومفسدة. فحرموها علينا. وكانت نزهتنا تنقسم إلى فرعين، أحدهما الخروج أحياناً عندما يطيب الجو إلى صحراء النجف مع تلك الشلة من الأصدقاء قاصدين منطقة (الطارات) وهي مرتفعات واطئة تطل على بحر ومزارع النجف الصغيرة. هناك كنا نطلق العنان لأفكارنا، تأملاتنا، أحلامنا ونحن نواجه غروب الشمس وإنعكاسات أشعتها على رمال الصحراء لتنقلنا إلى أحلام عجيبة كنا نخترعها ونعيشها متنقلين مع تكونها إلى عوالم وردية في مدن وردية وفي مقدمتها عاصمتنا الحبيبة بغداد، التي كانت محط آمالنا وأحلامنا، ففيها كنا نقضي في عطلاتنا أجمل الأوقات متنقلين من سينما إلى أخرى نحن الجياع إلى رؤية ما هو جديد وجميل في تلك العوالم المحرومين منها، كنا نهرع إلى معاشرة بنات الهوى إشباعاً لغرائزنا المكبوتة، التي لا تعرف سوى الحلم بالمرأة لنمارس العادة السرية وها هي بغداد تلبي ماكنا محرومين منه.

كهوف الطار في كربلاء

والمكان الثاني الذي استوعب واحتوى طاقاتنا الكثيرة والكبيرة سطح دارنا، كنت مع أصدقائي وديع، أحمد المعمار، كاظم شفيع وآخرون نمارس رياضة رفع الأثقال فلم تكن النجف تملك نادياً رياضياً، بل كان طموحنا الذي حققناه نحن المراهقون بعد زياراتنا إلى البصرة وبغداد. ففي إحدى

السفرات المدرسية إلى البصرة عام 1953، تلك المدينة الشاطئية المفتوحة، المدينة الساحرة بنهرها وشطها (شط العرب)، وبقنواتها التي تشبه قنوات البندقية، التي كنا نراها في الأفلام السينمائية، تعرفت على بطل العراق المعروف عبد الواحد عزيز في نادي الأمير، الذي يطل على شاطئ شط العرب. وكان الرجل كريماً وخلوقاً وجميلاً، علمني كيف أتدرب على رفع الأثقال طيلة وجودي في تلك السفرة الرائعة، التي لازلت أعتبرها من أجمل السفرات في حياتي من أيام مليئة بالجمال والفرح متمتعين بالنزهات في شط العرب وكورنيش البصرة الجميل وكرم نساءها الجميلات.

بعد عودتنا من البصرة، وكنا في زياراتنا إلى بغداد بعد ذلك نزور نادي الشباب، المعروف برياضة رفع الأثقال، قمت بصب أثقال من الحديد لدى الورشات الموجودة في النجف. دعوت بعدها أصدقائي لممارسة هذه الهواية الجميلة، التي كانت متنفساً كبيراً لطاقاتنا المكبوتة.

كنا نمارس تلك الهواية أغلب أيام الأسبوع مستمتعين بالتمارين الرياضية الصعبة، ونحن نرى أجسادنا تتغير وتتحول بعد الكسل والترهل إلى عضلات قوية.

لم نكن نفوّت فرصة لممارسة الرياضة بمختلف أنواعها ومنها رياضة ركوب الدراجات (البايسكلات)، قمنا نحن الفتية المتمردون بسفرة لم يحلم بها سكان مدينتنا الجامدون والمتخلفون يوما ما، قررنا الذهاب إلى مدينة الحلة نحن حكيم، مجتبى، مجيد، أحمد في تلك الرحلة بالبايسكلات إلى مدينة تبعد (60) كيلومتراً، وبالرغم من

بعد المسافة والمشاق التي واجهتنا إلا أننا أكملناها وعدنا في اليوم التالي ونحن في أقصى درجات النشوة، فرحون بما أنجزناه، وكانت حديث الشباب والشيوخ في المدينة النائمة في سباتها الألفي منذ تأسيسها وحتى الوقت الحاضر.

كانت أعياد الميلاد ورأس السنة الميلادية مصدر إثارة كبيرة لنا نحن الفتية المتجمعون في تلك الغرفة الكئيبة إلا من نكات ومرح مهدي شلاش، كنا نقرأ الجرائد التي تصل النجف يومياً عن حفلات أعياد الميلاد في منتديات وملاهي بغداد، ففي الأوبرج تحيي الحفل سليمة باشا مع زوجها المطرب ناظم الغزالي، وفي ملهى عبد الله مطربة العراق الأولى عفيفة اسكندر، وفي ليالي الصفا المغنية المشهورة ذات الصوت الملائكي نهاوند كنا نذهب بأرواحنا وأفكارنا لنغزو تلك المنتديات التي لم نكن نعرف عنها شيئاً سوى كونها محلات جميلة لصناعة الأنس والطرب المحرومين منه.

كنا نحلّق بأفكارنا داخل مجالات الطرب، نحسد المترفين الساهرين في تلك الأماكن الطربية نحن المحرومون حتى من وجود راديو. وكنا نلعن الجرائد وصاحب الجرائد الذي يستثيرنا بإعلاناته عن تلك الحفلات. وكانت تلك الليالي تمتص طاقاتنا وترمينا في حالات من البؤس الكبير بسبب الحرمان من كل مايؤنس في الحياة.

أي حياة عشناها في أزقة النجف القذرة تحيط بنا حيوانات مفترسة تبحث عن ضحايا لأطفاء غرائزها وكنا بتمردنا نكاد أن ننفجر من الغيظ لوعينا المبكر بما يجول في تلك المدينة الكئيبة الحزينة دائماً.

كيف لا ترنو عيوننا إلى بغداد الحبيبة وكل ما تملكه حولها من خيالات وفكر تقودنا إليها قبل أن نصل إليها ونغرق في مختلف مجالات الأنس والطرب والنزهات في ذلك الشارع المسحور شارع (أبو نؤاس) وسينماتها وملاهيها، وانبهارنا بنسائها السافرات ومجالات اللهو الأخرى.

كانت بغداد هي محجتنا التي نطمح في الوصول إليها، والعيش في أجوائها المترفة وحياتها المنفتحة على الطرب والأدب والعلم والسياسة.

وفي نهاية المطاف بعد أن أكملت الدراسة الثانوية توجهت نحو تلك المدينة وكلي أمل أن أحيا كما أريد بعيداً عن العادات والأعراف السقيمة، والحزن الحسيني السرمدي، الذي تغلغل في أعماقنا حتى النخاع فلم نكن نعرف من أيام الحرية سوى أيام عاشوراء الحزينة التي نسهر فيها إلى الصباح بدون أن يسأل عنا الأهل.

نعم هذه هي بغداد الحبيبة الجميلة، الخالدة، الممتعة بالرغم من الغزاة، الذين حاولوا طمس حضارتها وتدمير مؤسساتها العلمية والأدبية المتطورة، فكم غازٍ حسودٍ وحقودٍ حاول تدميرها وسحقها حتى لاتقوم لها قائمة، ثم تعود بغداد العنقاء من وسط الرماد حاضرة جميلة تتحدى القرون والغزاة، فمنذ مذابح هولاكو وحرقه لكتبها ومؤلفات العلماء فيها، والتي غيرت لون نهر دجلة إلى الأسود، من كثرة ما ألقي فيها من كتب العلم والأدب. منذ ذلك التأريخ (658م) حتى دخول واحتلال الأمريكان لها في عام 2003، بقيت بغداد تتحدى الغزاة من فرس وعثمانين. من حاول ذبح سكانها من الشيعة من قبل العثمانيين وذبح السنة من قبل الفرس، إلا أنها لم

تسقط بل بقيت رافعة عنقها نحو السماء وها هي بغداد البطلة، التي حاول الأمريكان تدنيسها، قاومت ببطولة دباباتهم وطائراتهم وأسلحتهم الفتاكة، وانسحبوا منها بدون أن يتمكنوا من إذلالها وسكانها الأباة، بل هربوا غير مصدقين بالنجاة. هذه هي مدينتنا الحبيبة التي قال عنها شاعرنا الكبير مصطفى جمال الدين في احتفال ألفيتها تلك الكلمات الخالدة.

جندي امريكي

بغداد ما شتبكت عليك الأعصر إلا ذوتْ ووريق عمرك أخضر

وقست عليك الحادثات فراعها أن احتمالك من أذاها أكـــبر

حتى أذا جنّت سياط عذابــها راحت مواقعها الكريمة تســخر

فكأن كبرك إذ يسومك (تيمر) عنتاً دلالك إذ يضمك (جعفــر)

وكأن نومك إذ أصيلك هامــدٌ سنةٌ، على الصبح المرفّه تحظر

وكأن عيدك بعد ألف محولة عيد افتتاحك وهو غضٌ مثمــر

لله أنتـ فأي ســر خالـــد أن تسمنين، وغذاء روحك يضمر

أن تشبعي جوعاً وصدرك ناهدٌ أو تظلمــي أفقــاً وفكــرك نــيرّ

هذه هي بغداد الزاهية في مختلف العهود، من عهد هارون الرشيد، كانت مركز العالم المعروف آنذاك بعلمها وأدبها وسحر نسائها وفتنتها الطاغية التي خلدها الشعراء منهم (علي ابن الجهم) الشاعر البدوي الذي دخل بغداد ليمدح الخليفة مترنماً بأبيات من بيئته الصحراوية قائلاً :

أنت كالكلب في الحفاظ على الود وكالتيس في قراع الخطوب

فما كان من حاشية الخليفة إلا واستنكرت ذلك وأرادت ضربه وسجنه، لولا التفاتة الخليفة الذي أمرهم أن يسكنوه في أحد قصور بغداد الفارهة المليئة بالجواري الحسان الواقعة على نهر دجلة.

دخل على الخليفة بعد عدة شهور قليلة ليقول قصيدته الخالدة والتي مطلعها :

عيون المها بين الرصافة والجسر

جلبنا الهوى من حيث أدري ولا أدري

أعدنا لي الشوق القديم ولم أكن

سلوتُ ولكن زدن جمراً على جـــمر

لم تكتوي بغداد باضطهاد المحتلين من مختلف الجنسيات بل أضّر بها وجعلها تئن وتتوجع ظلم أبنائها وتعديهم عليها ومحاولاتهم طمس تأريخها الناصع والجميل. عرفت بغداد أنظمة مختلفة منذ بناء الدولة العراقية بعد انتهاء الاحتلال العثماني، الذي دام أربعة قرون صعد إلى الحكم أشتات من الحاكمين بعد حكم فيصل الأول المعتدل والذي أراد بناء دولة حديثة، فقد حكمها زمرة من أتباع

الإنكليز حتى ثورة تموز، التي جاءت بحاكم وطني بالرغم من أخطائه العديدة واتهامه بالإنفراد والديكتاتورية، إلا أنه قدّم لبغداد خدمات عديدة، أقام مدينة الثورة خلف السدة، بعد أن وزع الأراضي على مهاجري العمارة البؤساء، وأقام مدناً عديدة، اليرموك للضباط وزيونة وفتح شوارع جديدة ووزع الأراضي على الجمعيات المختلفة وأصدر قوانين حديثة لبناء دولة مدنية جديدة.

المقاومة الشعبية الشيوعية في بغداد

حصل بعد ذلك العديد من الكوارث حين تولى البعث بقيادة صدام حسين للحكم وقبلها عام 1963 بإنقلاب 8 شباط، أساء هؤلاء الحكام إلى بغداد وأهلها، فقد حملوا في أسنانهم الموت الزؤام لأهلها ودمروا حضارتها وحرقوا الكتب الثمينة بحجة أنها كتب تخريبية مما ذكرنا بهولاكو وما قام به آنذاك.

وحمل الحاكم الجديد بعد إنقلاب 1968 حقداً دفيناً على بغداد وأهلها، عرضّها الحاكم المغرور إلى مآسي رهيبة وأشعل حروباً إقليمية ضد إيران والكويت وأهل بغداد المعارضين لحكمه.

تعرضت المدينة إلى تدمير رهيب من قبل الطائرات الأمريكية، وحلّت بنا مآسي لايمكن وصفها، فمن يستطيع أن يفكر بأن أمريكا المتحضرة سوف تدمر ملجأ العامرية وتقتل الأطفال والنساء اللاجئين فيه والذي يربو عددهم على ثلاثمائة إنسان برئ

راح ضحية هجمة الدولة المتحضرة التي قامت بتدمير بنيتها التحتية والتي لم يعاد بنائها حتى الوقت الحاضر أي عام 2004.

وكانت بغداد الفرحة الجميلة التي كانت صباحاتها تبدأ بتغريدة البلابل ومع تفتح زهور الياسمين والروز المتنوع الألوان خصوصاً في الربيع الذي يحمل لنا عطور القداح، التي تبث الحب والصفو في نفوسنا نحن البغداديون.

كنا بدل ذلك نستقبل جنائز شبابنا في الحرب مع إيران يُزفون مع الشموع والهلاهل متوجهين إلى القبور بدل حفلات الأعراس والسهر الجميل في ليالي بغداد.

ماذا عمل هذا الحاكم الأهوج ببغداد، عرّضها إلى حروب ثلاث مدمرة أتت على خيرة شبابها، ودمرت بنيتها التحتية، وحطمت نفوس أبنائها. وأخيراً تسبب في احتلالها من قبل أمريكا. إن الذين أتموا تدميرها وعرضوها إلى أسوأ ما حلّ بها أيام هولاكو، بعد دخولهم بغداد في نيسان 2003، فقد تسبب دخولهم بإطلاق زمر الجريمة والتدمير والسرقة ليقتلوا وينهبوا ويخرّبوا بغداد الجميلة التي عرفت الحزن الدائم في ظل ذلك الحاكم المتهور.

سرقت منا حقنا وكنوزنا الفنية ومصارفنا وحرقت الكتب التي خلدت حضارتنا. حضارة وادي الرافدين. ولا نزال نسترجع من آن لآخر بعض الآثار التي يجود بها علينا بعض البشر المتحضرين لعرضها مرة أخرى في متاحفنا.

إلا أن بغداد هي العنقاء يدمرونها ويحرقونها حقداً وغيرة من تقدمها وحضارتها وعظمة أهلها وأدبهم وعلمهم، لتعود ومن جديد

أجمل وأقوى وأرسخ من السابق، فلن تهّد حضارة بغداد ولن يستطيعوا أن يهزموا أهل بغداد، فسرعان ماعدنا أنشط وأقوى وأعظم من السابق ولسوف نبني بغداد من جديد لتعود أنضر وأحلى من العواصم الأخرى.

كتبت العديد من القصائد عن حبيبتي بغداد وصمودها البطولي أمام عتاة المجرمين من حكام ومحتلين. وها هي أحداهما :

بغداد ياعنقاء

بغـــــداد يا عنقـــاء كـــلا لـــن تموتـــــي
ستظل أشـرعة السـماء تظـلّل المجـــد التلـــــيد
عـــــبثاً أرادوا طمـــــس لـؤلـــؤة الوجـــــود
فتـــساقطوا وبقـــيت فـــــوق ذرى الخلـــــود
مـن عهـد هولاكـو أرادوا ســحق ماضـيك المجيـــد
فنهضت مـن بـين الرمــال وكنت شـــامخة النهـــــود

.....

بغـــداد كـم ســفّاح جــرّب فـيك لوثـــته الغبيّـــة
صبغـوا الثــرى القدسي بالدم أحرقوا الكتب البهيـّة
من كان أسوأهم بتدمـير التراث وقـتل أصحاب القضـية
هــو آخــر العنقـود مـن يحمـل ســم النرجســـية
فلقـد أتـاك محمـلاً بمسـاوئ الدنيا فصـيّرك سبية

وبقيت أحمل بغداد الحبيبة بين ضلوعي أينما ذهبت وحثيما حللت، بالرغم من تعرضي إلى الطرد من الجامعة واضطراري للهجرة خارج العراق إلى بلد عربي (المغرب) فلقد بقيت أحن إلى حبيبتي بغداد، التي عرفت فيها العز والكرامة، وتعلمت فيها وأحببت النساء الجميلات فلن أنسى تجاربي العاطفية وحبي الأفلاطوني لفتاة بغداد ابنة شارع طه في منطقة الأعظمية التي أحبها كل شباب ذلك الشارع وكنت احدهم وكانت عارفة بحبنا لها وهي تزداد غنجاً ودلالاً، كما تزداد بغداد البهية في مخيلتي وأحلامي وأنا في الغربة يقتلني الشوق لمدينتي العتيدة، التي تحمل أمجادنا الكبيرة، كان شوقي كلما مرّت الأيام يزداد ضراوة فلن أستطيع البعد عن حبيبتي مدينة النور والبهجة والفرح.

كتبت هذه القصيدة وأنا في المغرب معبراً عن حبي وشوقي لبلدي ومدينتي :

تمنيت نفسي على جرف دجلة أعانق في شوق سعفات نخلة
ويمخر عبريّ نهر الفرات وأشرب نشوان خمرة زحلة
وأرقب في الفجر زهو الشموس ومن شفق يلبس النهر حلّة
يموء بحزن خرير المياه وتحكي المواويل تأريخ دجلة
تمنيت نفسي بأرض العراق أهيل الخزامى على كل تلّة
وأمطر روحي على الهضبات فيُزهر وردٌ وتشرق فُلّة

لعل أبشع ما حمله الاحتلال لشعب العراق أمران، الأول فتح الحدود العراقية أمام الجماعات الأرهابية بقيادة القاعدة وكان بوش يصرّح، أن قتالنا مع القاعدة سيكون في العراق بدلاً عن أمريكا.

والأمر الثاني إشعال نار الحرب الطائفية بين السنة والشيعة والتي لم يعرفها العراق في عهود سابقة. كان العراقيون من مختلف الطوائف والأديان يعيشون بسلام ومحبة، يتزاوجون ويعملون سوية بانسجام وتوافق حتى دخول (الشيطان الأكبر) كا يسميه حكام إيران.

عصف العنف بالعراق وخصوصاً العنف الطائفي فتفرقت العوائل والأقوام شذر مذر وابتدأت الهجرة بعد أن أصبح القتل على الهوية هو السائد في الشارع البغدادي وغيره من المدن.

هاجرت مع أبنائي وأحفادي خارج العراق مخلفاً قوماً يلفهم الموت وتسحقهم الخلافات ويرفرف على رؤوسهم الرعب القادم مع جحافل القاعدة. كنت في حالة من الفزع خوفاً على أحفادي، الذين ترعرعوا في حمايتي، وعلى أولادي وكنت أنازع وأصارع نفسي، كيف استطعت مغادرة بغداد الحبيبة تاركاً إياها تبكي وتتعذب تحت ضربات الإرهابيين تدمّر مبانيها وتسرق آثارها ومصارفها وتقتل أبناءها بهذه الذريعة أو تلك. كان البكاء لا يخفف من آلامي، كنت أشعر بالضياع وعدم الاستقرار في دبي.

كانت دبي الجميلة بمبانيها وباراتها ونسائها من مختلف الجنسيات والقوميات أراها أشباحاً تكدرني، كما وتذكرني ببغداد الجميلة التي حولها الأمريكان والإرهابيون إلى خرائب تعبث في أطرافها البوم والغربان. تلك المدينة الزاهية الباسمة التي كانت ملهمة للشعراء والأدباء يتغنون بمباهجها ولياليها الطربية في الشارع النوأسي وملاهيها العامرة بالفرح.

كتبت العديد من القصائد وأنا أجول وسط الأبراج العالية متصوراً إياها (خوازيق) تثقب أحشائي، فقد تركت بلدي عرضة لضربات المجرمين وهنا كل شيء هادئ وجميل يحيا فيه كل أبناء القوميات المختلفة في بهجة ورفاهية، وأنا أتعذب بعيداً عن وطني وبغداد الحبيبة.

كانت أولى قصائدي التي كتبتها في مهجري الجديد :

انا من أنا

أنا من أنا في عالمِ لفظته آلهة السما
أنا في ظلال الموت أعدو هائما ومحطما
أصبحت في التيه الكبير محجماً وملجما
أنا في (دبي) وقلبيّ المزروع في بغداد أضحى معتما
وأناملي تتلمس الأشلاء فجرّها أبالسة الشرور تنعمّا
عيني على وطني تمزقه ضلالة حاقدين تشرذما
والروح من فرط الخواء أصابها كمدٌ فمات البرعما
أحيا يظلّلني سرابٌ هل يعود الدفئ للأوطان فجراً حالماً
أيعود للوطن الحبيب بهاءه وتعود بهجتنا ربيعاً دائماً

وأبقى شارداً هائماً في أيامي وسط دبي لا أعرف للراحة سبيلاً روحي تحترق مع شارع المتنبي الذي أحرقه المجرمون بقنابلهم وهم يستوحون أفكارهم ورؤاهم من السلفية المقيتة ومن الأفكار الوهابية

التي لا تعرف للثقافة والحضارة معنىً فهم جاءوا لوأد كل ما يتعلق بإنسانية بغداد وحضارتها وأبناءها بقنابل هيأها لهم سماسرة الإستعمار وأتباعه من بقايا الوهابية في قطر والسعودية، أباحوا لهم قتل العراقيين فهم لا يستطيعون أن يروا أبناءنا في العلالي، متفوقين في مختلف مجالات العلم والأدب فليقتلوهم ويدفنوا حضارة العراق بحقد الإرهابيين وقنابلهم.

شارع المتنبي في بغداد

ها هم يلبون الطلبات الرجعية القادمة من صحراء الفكر، السعودية، فيفجروا شارع الثقافات والحضارات، شارع المتنبي، ليكملوا ما بدأه أسيادهم القادمون من أمريكا، من أحرق وسرق ودمرّ مراكز الحضارة في بغداد.

هزني بعنف تفجير شارع المتنبي فكتبت هذه القصيدة التي لا أملك سوى التعبير عن ألمي ذلك الفعل الشنيع الذي ارتكبه دعاة الفكر الظلامي الأسود.

هذه بعض أبيات إعدام شارع المتنبي :

بغداد هل عاد هولاكو لديرتــنا ليغرق الكتب الغرّاء في الحمم

صبّ البرابرة الأوباش حقدهــمُ على تراب مضئٍ صادق القــيم

فيه حضارات قومٍ كان ديدنــهم أن يبتنوا وطناً يزدان بالكـــرم

فحولوا الشارع المضياف محرقة لخالدين بنوا أمجاد كالهرم

فأحرقوا المتنبي شارعاً وهدىً تمازج الحرف بالأشلاء بالقلم

يرمون قتل عراقٍ شامخ القيم ويطفئون سنىً برّاق كالنجم

هذي سجيتهم في الشرع والسنن استوحوا مشورتهم من بؤرة العدم

تباً لقوم أمات الحقد ناظرهمْ تنكرّوا لكتاب الله في الحُرم

فحولوا الشرعة السمحاء مقبرة سيفاً يحز رقاب الناس والكلم

لعليّ لا أبالغ إذا وصفت الفترة الأخيرة، التي ابتدأت بعد الاحتلال، بأنها أبشع ما حلّ ببغداد من مآسي ومظالم لم نجربها في كل عهود الحكم السابقة من العهد الملكي وعبر العهد الجمهوري، ونظام صدام حتى المرحلة الأخيرة، كما أنني لا أبالغ أيضاً إذا وصفت الحكام الجدد القادمون مع الأمريكان بأنهم ذئاب قدموا لافتراسنا ونهب ثرواتنا.

من كان يظن أو يفكر بأن حكامنا الجدد القادمون من بلاد الغرب، والذين كنا نأمل تطبيقهم للديمقراطية وبناء بلدنا على نسق البلدان الأوربية : هؤلاء الحكام جاءوا بشهية مفتوحة للحكم ونهب الأموال.

وها هي بغداد التي كانت تئن تحت وطأة حكم صدام، إذا بها تتعمق جراحها ويزداد خرابها وتتحول المدينة المفتوحة، المدينة التي تغنى بها الشعراء لجمال بنائها ولروعة منتزهاتها، وطيبة وإنسانية سكانها. حولّها الحكام الجدد بمساعدة الأمريكان إلى (كنتونات) منعزلة الواحدة عن الأخرى ذلك بفضل السياسة الطائفية، الواردة

لنا مع الجيش الأمريكي، والتي حولت الحكم بأكمله إلى محاصصة بين الحكام الشيعة والسنة والكرد، وتبع ذلك أن قسمت بغداد الى (كيتوات) شيعي وآخر سني، فالأعظمية منطقة سنية، والكرادة منطقة شيعية ومدينة الثورة شيعية والعامرية سنية، وأحاطوا هذه المناطق بسياجات كونكريتية ذات مدخل واحد لتكملة الحصار على أهلها، الذين ما أستطاعوا أن يتنفسوا الحرية بعد سنوات الحصار الثلاثة عشر، التي فرضها علينا الأمريكان بالتعاون مع صدام حسين.

جدران كونكريتية في بغداد

كم كنا نأمل في استرداد حريتنا، فقد صدقنا في البداية أن الأمريكان جاؤوا محررين، ولكن سرعان ما انتهت تلك الأسطورة وتحولنا إلى أبشع من مستعمرة يذبحنا الأمريكان والإرهاب، ويتقاتل الأخوة السنة والشيعة الذين عاشوا مئات السنين في ظل دين يجمعهم ويآخي بينهم حتى دخول الجيش الأمريكي جالباً معه حكام تنكروا لما اتفقوا عليه في مؤتمراتهم في صلاح الدين ولندن، والناصرية وبغداد .

استلموا الحكم وكأنهم ذئاب مفترسة. وزعوا الغنائم بينهم وسلبونا ليس حريتنا فحسب، بل أموال النفط، ومئات المليارات، التي كنا سنبني بها بغداد من جديد، كما نبني العراق، الذي تخلف في العهود السابقة، فلا خدمات كهرباء أو ماء، مجاري، تبليط شوارع،

بل غرقت بغداد بعد مطرة غزيرة بالمياه، والتي لم يحصل لها ذلك من قبل، فأي نظام سياسي وحكام يديرون عجلة الحكم في العراق..؟.

نبكي يومياً ونحن نرى بغداد مُزّقت بفعل جدران الإسمنت التي تحيط بمحلاتها، وأصابها المرض وتخلّى عنها سكانها فتراها مرعىً للمزابل والأوساخ بعد أن كانت تزهو بالحدائق الغنّاء، أصاب اليأس السكان، الذين لم يحصلوا من النظام الجديد على المأوى والمأكل والحرية، بل أصابهم السقام بسبب إنعدام كل الخدمات الضرورية للعيش الكريم. فالفساد والرشوة، والشهادات المزوّرة التي جلبها الحكّام معهم تضرب بأطنابها. وأصحاب الكفاءات والرجال الأخيار مذيلّون، يحسبهم الحكام من بقايا نظام صدام.

إحدى حدائق بغداد

بهذه العقلية أبعدوا المخلصين من الوظائف، وساعدوا في هجرة الكفاءات الهاربة من الموت الزؤام، فكم خبير وأستاذ ودكتور قتلوا بدون ذنب سوى أنهم يحبون بغداد والعراق ولا يرغب بهم الحكام الجدد، كما لا ترغب بهم دول المنطقة من الجيران المتآمرين على حضارتنا ووجودنا. كيف أستطيع أن أكتم عواطفي وأنا أرى بلدي وبغداد تتمزق فكتبت العديد من القصائد أنعي بها بغداد والعراق.

هذه أبيات من قصيدة:

بغداد توأم روحي

بغداد توأم روحي يامعذبةً
متى يعود إليك الصفو والألق
مرّتْ عليك سنين القهر مجدبةً
جفت زهور الهوى فيك ومن عشقوا
فما ركعتِ لذلٍ أو لجائحةٍ
ظلّت سماك مدى الأيام تأتلق
بغداد يا غادةً غنىّ لها الشفق
وفي حماها جموع الغيد تعتنق
كنت الملاذ لأهل الحب والسمر
على أديمك نهر الوجد ينطلق
يا موطن الحب ياحوراء فاتنةً
غدوت مشلولةً والقلب منغلق
أدمت جناحيك أقوامٌ مسخرةٌ
غزت مرابعنا أشتات ترتزق
أين المجالس فيها يعقد الطرب
صارت خواءً وفيها النبع يحترق

ومن تبقّى من الأحباب قد هجروا

ولم يعودوا لأرض لفها الغسق

قصف بغداد 2003

آه حبيبتي بغداد، كم أحببتك وأحببت كل شئ فيك، شوارعك النظيفة والجميلة، ونهرك الخالد دجلة، حدائقك الغناء، وحديقة بيتي التي هجّرني منه الأرهابيون، تلك الحديقة التي كانت تزدان بأجمل الورود والأشجار بأنواعها، نواديك ومنتدياتك، حتى ترابك أحببته وعبدت كل شئ يعود وينتمي إليك يا بغداد. وأحببت نساءك الجميلات، وكنا نحن شباب الخمسينات، نتغنى بجمال بنات بغداد وبقيت أحمل الذكرى على مر السنين وأنا خارج بلدي بين شقراوات روسيا وإنكلترا، لكن صبايا بغداد سكنّ قلبي، ولم أنس تلك الفتيات الرشيقات وهن يخطرن في شوارعك العريضة في أبي نؤاس مرتع الحب والجمال.

كتبت فيك يابغداد وفي نساءك العديد من القصائد، وهذه بعض الأبيات من إحدى القصائد:

بغداد يا مرتع حبي الجميل فيك من الأشواق ما يُغدق

غنىّ لك (ابن الجهم) أنشودة للآن في أجوائنا تبرق

كان بنوا العباس أجدادنا لهمٌ خيال جامحٌ سامق

فقد أحبوا ساحرات العيون سهامهّن في الحشى يطلق

وناهدات الصدر في شعرهمّ شموس حبٍ في السما تشرق

واليوم في بغدادنا نسوةٌ يذوب في أعطافها الزنبق

فالكرخ يزدان بأحلى البدور لهن في النفس صدىً ينطق

وفاتنات القد جنب (الإمام) قلوبهن بالهوى تخفق

يا راغباً في سحر أهل الهوى فسحر أهل الحب لا يقلق

تعال واهنأ في نعيم الحسان وانهل من اللذات ما يسرق

فالعمر ما يغفل عنه الردى بعض هنيهات بها نعشق

ملاحظة : المقصود الإمام أبا حنيفة في الأعظمية

وهل يمكنني أن أنسى ليالي بغداد الدافئة المليئة بكل ما يبعث الحب والنشوة في النفوس. كانت ليالي بغداد عامرة بأهل الطرب والأنس في ملاهيها ونواديها ومنتدياتها، فشارع (أبو نؤاس) الذي تزينه محلات الطرب واللهو على ضفاف دجلة، هافانا، الجندول، الذي كان مرتعاً لأهل العشق من الشباب والذي زيّن معالم هذه الكازينو الفاتنة اليونانية ابنة صاحب الكازينو وهم غارقون في خيالاتهم السكرانة.

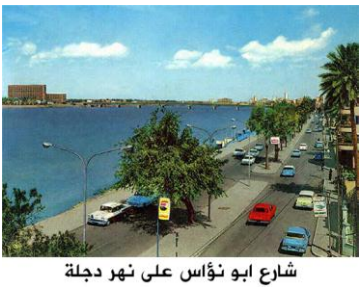
شارع ابو نؤاس على نهر دجلة

وكم كانت نيران السمك المسكوف على ضفاف دجلة (شارع أبو نؤاس) تزيّن سماء بغداد السوداء الجميلة النجوم. ذلك المعلم الذي

سحر دكتاتوراً كصدام حسين فاصطحب أهل (المسكوف) إلى باريس لإعداد مائدة عراقية مناسبة يفخر بها أمام رئيس جمهورية فرنسا عام 1975 (شيراك). كم كانت موائد السمك المسكوف التي تزيّن لياليا ممتعة وشهية. ما أحلى ليالي الشباب التي تفتقدها بغداد المنكوبة في الوقت الحاضر.

كانت لياليا معطرة بأجواء بغداد الليلية العذبة.

كتبت هذه القصيدة في ذكرى تلك الليالي التي لا تعود

جميلات لياليا

وكم كانت جميلات لياليا
وكم تهنا وما غابت أمانيا
وكان الأنس مرعىً في شواطينا
وكان الحب يجري في أغانينا
زمان العشق بيتاً ظلّ يحمينا
وعشناها بلا هم وكم طالت لياليا
سرحنا في ضفاف النهر والنجوى تنادينا
وزهر الحب عشقاً ظل يسقينا
نهلنا من مياه النهر شهداً كان يروينا
ومن أطياف دجلة أزهرت فينا رياحينا
شربنا خمرة العشاق والنجوى تناغينا
ودب الحب في مهل لكي يحي الشراييا

2

بغداد نور لا ينطفئ ومعين لا ينضب وحضارة لا تنتهي. بهذه الأفكار التي حملتها عن بغداد، دخلت عاصمة الحب والأدب وأنا في نشوة وحلم عما ينتظرني في تلك المدينة، التي بقيت أحلم بها طيلة سنوات طفولتي ومراهقتي وها هي بغداد تفتح ذراعيها للحالم القادم إليها.

قبل دخولي مع شقيقي مدينة النور بغداد حملتنا سيارة صديقنا (جبارعبد مبارك) الفورد ذات اللون الأسود، والتي يطلق عليها شقيقي الكبير سالم لقب (الباذنجاني) تحبباً وتدليلاً لتلك السيارة، المعروفة جداً في شوارع النجف القليلة والضيقة في سنوات الخمسينات.

قبل دخول المدينة وصولاً إلى كراج الكرخ، مررنا ونحن في شبه سكرة، بمحلة الدورة ذات الإلتواءات العجيبة كأفعى ضخمة تتلوى أمام أعيننا، قبل أن يُقضى على ذلك الدرب الجميل، الذي كانت تغطيه غابات النخيل الكثيفة. والتي أضفت عليه بإنعكاسات الشمس أجمل المناظر وأحلاها، وخصوصاً لمن كان يعيش على تخوم الصحراء بعيداً عن الخضرة وجمال النخيل. كان سائقنا جبار يسوق ببطئ ليجعلنا نأنس أكثر بجمال الدورات العديدة وشموخ النخيل الباسق، الذي أضفى على بغداد جمالاً ومتعة للناظر والعاشق.

كنت أتغزل بالنخيل وأعشقه منذ طفولتي، وتلك السفرة الساحرة على ظهور الحمير من النجف إلى البراكية، حيث بستان والدي الكثير النخيل، والذي كان يغذينا بثمره التمر طيلة العام. لكثرة (الحلاّت) الذي يزودنا بها فلاحنا حسن.

كتبت قصيدة النخلة وأنا في غاية الشوق والحب لتلك المعشوقة الزاهية والشامخة، فهي رمز الحياة ورمز العراق أيام الزمن الجميل.

النخلـة

سلام على حلوة المطلع على ثغرك الباسم الناصع
سلامٌ عليك صباحاً مساءً على الطلع والرطب اليانع
سلامٌ على سرّ مجد الرجال على عودك الفارع الطالع
هو النخل فيه شموخ العراقْ ورمز حضاراته الساطع

.....

لعبنا وأترابنا سنواتٌ بمرجٍ من النخل الناصح
وتهنا بأطرافه سارحينْ قطيعاً من البقر السارح
يدمدم عند هبوب النسيم فنطرب من سعفه الجانح
يهدهدنا كنشيد جميلْ فنغفو على نغمٍ مازح

.....

عشقتك نخلاً فسيلاً ولينا وهمت بتمرك في كل حين
فها هي برحيةُ الرافدين عروساً تنوّر للسامرين

ففي عنقها التمر صافٍ الأديم مدلىّ عذوقاً على العالمين
تمورك يا قبلة الرافدين تقطّر شهداً على السائرين

.....

شذى الطلع يا حُلم الحالمين وأنشودة العمر طول السنين
تغنى بتك الناس من كل حدبٍ أريجاً يزين هوى العاشقين
سكرت بعطرك والياسمين إلى جنب عطرك غثٌ هجين
فمنك حياة أهل العراق ثماراً وخيراً على المتقين

.....

أُحبُ بعمق جميع النخيل وأعشق من تمره ما يعيل
فحمراءه تستثير النفوس وشقراءه تزدهي بقوام جميل
ونشوته بدلال تميل إذا مسها غزلٌ من خليل
تظللنا عند وقت الهجير وتبهجنا في نسيم الأصيل

حين وصولنا كراج المختار في الكرخ، الذي تبيت فيه سيارات الأجرة بين النجف وبغداد وبقية محافظات الوسط. لاحظت ونحن نترحل من السيارة شلة من الرجال مجتمعة في المقهى الواقع بتلك المحطة. كانت الشلّة تحيط برجل يميل إلى الشقرة مع صلعة صغيرة تنبأ بقدوم الشيخوخة. كان الرجل ضخم الجثة وفي يده أنبوب (النارکيلة) التي عرفها العراقيون عن طريق الاحتلال العثماني وسكنت بيوت المدخنين خصوصاً من عليات القوم. سألت عن الرجل المنتفخ الأوداج، والذي تبدو عليه سمات الزعامة والخيلاء. قيل لي أنه (خليل لالو) المعروف بشقاوته ومركزه المهم بين الرجالات الأشقياء في عاصمتنا بغداد. وكان الرجل الشقاوة يمتلك ويهيمن على ذلك الكراج وبعض المناطق التي يبتزها في جانب الكرخ.

علمت بعد البحث عن موضوع أشقياء بغداد خلال إقامتي الخمسينية، والتي ابتدأتها بتلك الظاهرة الغريبة عن المدن المتحضرة في العالم، التي تنتمي إلى دول قوية، ديمقراطية، لكنني لم أنس أن هذه الظاهرة وإن كانت في خمسينيات القرن الماضي قد انتهى أجلها في مدينتي العتيدة إلا أننا عرفنا بعض (الشقاوات)

مقهى الزهاوي في شارع المتنبي

المنصرفين إلى خدمة شيوخ العشائر أو المتنفذين من مدينتنا النجف، وكان أبرزهم المدعو (خلايل) كان خلايل وأمثاله يستخدمهم البعض للعدوان على خصومهم مقابل أتاواة نقدية. إلا أن تلك الظاهرة انتهت تقريباً عند مغادرتي المدينة عام 1954 لبروز الظواهر السياسية المتمثلة بالأحزاب المختلفة في المدينة، خصوصاً بروز التيار اليساري الذي يقوده الشيوعيون.

يعود الفضل لانتهاء تلك الظاهرة لجهود الشباب في محاربة أمثال خلايل، وشلّ حركتهم، التي تمثل الجهل والعدوان في مدينة معروفة بوقارها الديني، وبمكانتها السياسية في العراق والعالم.

بقيت صورة (خليل لالو) عالقة في ذهني فرحت أسأل عن حقيقة الشقاوات في بغداد، وكان صديقنا عبد الهادي البغدادي خير مصدر لشرح هذا الموضوع وأصوله وتعدد مصادره وشخوصه.

وكان الدكتور علي الوردي خير مصدر لي في التدقيق بجذور تلك الظاهرة في كتابه (لمحات من تأريخ العراق) روى الوردي عن شقاوات بغداد في العهد العثماني، وكانت تلك ظاهرة معروفة ومنتشرة. فالشقاوات كانوا يتمتعون في محلات بغداد بالسطو والقوة فارضين سيطرتهم على محلات الكرخ والرصافة، وكانوا في نفس الوقت حماة لأهل محلاتهم من عدوان المحلات الأخرى. وقد عرف الشقي المشهور (ابن عبدكة) الذي دان له جميع الشقاة وانتشرت سمعته في جميع أرجاء بغداد.

كان ابن عبدكة شخصية فريدة، فقد عرف عنه مساعدة الضعفاء في محلات بغداد. وقد تحول تماماً إلى العمل الثوري والوطني خلال ثورة العشرين. فكان من أبرز زعماء تلك الثورة في لواء ديالى حتى يقال أنه نُصّب مسؤولاً للأمن في ديالى. ويعني هذا التحول في نشاط ابن عبدكة على البذرة الطيبة التي أنتجت في النهاية إنساناً وطنياً مخلصاً لبلاده. يقارع المستعمرين الإنجليز بكل عنف وإدراك للعمل الوطني والكفاح ضد المستعمر.

علي الوردي

كان أولئك الأشقياء بالرغم من سطوتهم وعدوانيتهم إلا أنهم معروفون بحسن الأخلاق ومساعدة الضعيف والانتصار لأبناء محلاتهم. تلك التقاليد والأخلاق التي انعدمت لدى الشقاوات الجدد.

حدثني البغدادي عن عدد من الأشقياء المنتشرين في مدينة بغداد، والتابعين للزعامات السياسية المعروفة، وكان منهم (خليل لالو) المعروف بولائه ودفاعه ووقوفه إلى جانب ضياء جعفر وجماعة نوري السعيد حيث كان يعمل في حمايتهم والتدخل مع أزلامه لمصلحتهم في الانتخابات النيابية. وفي مقابل تلك الحماية يتمتع الرجل بالامتيازات المادية والعطايا ومنها كراج الكرخ المار ذكره أعلاه.

لقد بلغ الأمر بجرأة (خليل لالو) أن يترشح لانتخابات المجلس النيابي لعام 1954 ضد العناصر الوطني معتمداً على أزلامه وحماته من رجال السياسة. وبالرغم من فشله في الانتخابات إلا أنه بقي رمزاً من رموز الشقاوات التابعة لرجال الحكم في عراق الخمسينات.

وذكر لي البغدادي بعض الشقاوات العاملة في خدمة السياسيين ومنهم (أولاد كنو) أصحاب نوري السعيد، وكانوا يملكون محلات بيع الفواكه في محلة الحيدرخانة. وكان أولئك الأشقياء معروفون بسطوتهم وإخلاصهم (للباشا) نوري السعيد، عملوا معه في الحماية ودعمه في الانتخابات وكانوا معروفين في خدمتهم لسلطة نوري السعيد السياسية.

ومن الشقاوات بعض أفراد العكيلات في مدينة الكاظمية، حماة عبد الهادي الجلبي، السياسي الشيعي المعروف، الذي كان من أبرز رجالات نوري السعيد وعضواً عاملاً في حزب الاتحاد الدستوري الذي يقوده نوري السعيد.

وهناك نموذجين من نماذج الشقاوات التي كانت معروفة بقوتها وغطرستها وعدوانيتها في محلات بغداد في الكرخ والرصافة.

كان (أبوالهوب) مشهوراً بزعامتة لشلة من الأشقياء في بغداد وعرف بقسوته ونزاعاته مع شقاوات بغداد الأخرى، لكن هذا الرجل تحول إلى إنسان آخر بعد سجنه في سجن الكوت.

خليل ابو الهوب 1950

التقى أبو الهوب بالشيوعيين الموجودين في ذلك السجن وعمل الرفاق على إعادة تربية الرجل وتعليمه وبث الروح الوطنية فيه وبعد فترة من التعليم والعيش المشترك مع الشيوعيين، الذي وجد فيهم صفات الرجولة والمقاومة والوطنية وهم يكافحون من داخل السجن عصابات الحكم والسجانين، كانت صفات الرجولة لدى الشيوعيين أحدى أسباب تحول أبوالهوب إلى صفهم بالرغم من عدم تفهمه وإدراكه ومعرفته للنظرية الماركسية.

حدثني أحد الرفاق أنهم كانوا ينظمون محاضرات في الوطنية والاستعمار القديم والحديث وأهدافه في العراق والعالم وبعد انتهاء المحاضرة ، توجه المحاضر لأبي الهوب يسأله عن هدف المحاضرة، كما فهمها، فأجاب أنه يعرف فقط أن (الاستعمار كلب ابن كلب) فضجت القاعة بالضحك العالي. وهذا دليل على عدم ادراك الكثير من الشيوعيين وأنصارهم الماركسية والنظرية الشيوعية.

وعند خروجه من السجن تحول الرجل إلى مناضل يدافع ويحمي الشيوعيين ومظاهراتهم الكبيرة واستطاع أن يجد عملاً يعيش منه بدل أتاواة الشقاوة التي عاش عليها ردحاً من الزمن.

وقد حدثت تحولات مهمة في بغداد بعد إنقلاب قاسم على الشيوعيين وتنكره للتحالف معهم. حيث بدأت حملة اغتيالات كبيرة

في صفوف الشيوعيين في بغداد والموصل، والتي وقف الرفاق يتفرجون على إخوانهم يتساقطون الواحد بعد الآخر بدون أن يتخذوا موقفاً قوياً ويعمدوا إلى الرد بالمثل على تلك الاغتيالات، وأذكر في إحدى النقاشات التي دارت بيني وبين أحد المسؤولين المتقدمين في الحزب (سليم مرزة).

ذكرته بما تتناقله العربان في مدينتي (النجف) التي تمتلك علاقة مميزة مع رجال القبائل والبدو الرُحل لأنها أهم مركز تجاري على حافات الصحراء. وقد حدث مرة في مجلس والدي أن حكي له (محمد التركي) شيخ الدهامشة. أن عدواً لهم قتل كلبهم، فأمرهم الشيخ بقتل كلب أعدائهم وإلا فأن الأمر يتطور إلى قتل رجالهم الواحد بعد الآخر. وهكذا استطاع ذلك الرجل الأمي أن يضع حداً لنزاع كاد أن يتطور إلى معارك طويلة بين القبائل.

قلت له يا عزيزي ماذا دهاكم أنتم صامتون لا تقومون بالرد على الرجعيين الذين التفوا حول البعث وقاموا بتلك الاغتيالات، أن من يوقفهم هو الرد على أعمالهم الإجرامية. وكان العديد من الشيوعيين يميلون إلى هذا الحل لإيقاف الأعمال العدوانية المتمثلة بالاغتيالات.

إلا أن رد الحزب آنذاك أنهم لا يؤمنون بالانتقام الفردي، وإنما بالنضال الجماهيري الذي سوف يوصلهم إلى الحكم بدون انتهاج أعمال الثأر. وكان ذلك من الأخطاء المميتة للحزب الشيوعي.

كان خليل أبو الهوب هو أحد ضحايا العصابات الإجرامية الملتفة حول البعث وكبار الرجعيين المتضررين من ثورة تموز. فاستأجر الرجعيون العديد من الشقاوات للعمل في خدمتهم. كان أحد أولئك الأشقياء (جبار الكردي) الذي دُفع له مبلغ كبير من المال لاغتيال أبو الهوب، وتم اغتياله في صبيحة أحد أيام صيف عام 1960، وراح أبو الهوب ضحية أخطاء الشيوعيين آنذاك. ولم يسلم جبار الكردي من القتل فقام صبيه الشاذ جنسياً بقتله. وهكذا كانت تدور تلك الأحداث في عراقنا بعد تراجع قاسم عن رفاقه الشيوعيين.

ان (الشقاوة) الآخر الذي أعيدت تربيته في السجن هو (فاضل طويرني) ذلك الشاب الذي أتذكره جيداً أثناء دراستي في كلية الحقوق. كان فاضل يعيش قريباً من الكلية في منطقة العلوازية. وكان (مطيرجي) معروف وأخذ لقب طويرني من قيامه بتربية الطيور.

كان الرجل قوياً وجريئاً وعمل في حماية الشيوعيين أثناء المظاهرات التي كانت تخرج دائماً بعد ثورة تموز، وقد تحول بعد حياة الشغب والعدوان إلى مناضل جرئ يعمل في صفوف الوطنيين المكافحين ضد الرجعية والاأقطاع وحين اشتدت وطأة الاغتيالات، كان فاضل هدفاً عدة مرات للاغتيال ولكنه نجى منها. فعمد الحزب الشيوعي إلى تهريبه للخارج، إلى المانيا الديمقراطية وبعدها إلى جيكوسلوفاكيا. ومع مرور الأيام والسنين عاد الرجل إلى شرب الخمر ومطاردة النساء وحين استلم البعث السلطة ثانية عام 1968

رأيته في إحدى زياراتي إلى وزارة الري جالساً في غرفة الاستعلامات يقف مع الداخلين.

عجبت للأمر فقد كان مطلوباً أيام حكم البعث السابق عام 1963 فما الذي جعله يعمل لخدمة البعث وحين سألت صديقي في الوزارة، فقال أنه أحد شقاوات حزب البعث وقد غير اسمه إلى اسم آخر متصوراً أنه سيخفي ماضيه عني وعن أمثالي ممن يعرفونه. واعتبرت أن ما حصل لهذا الرجل كان بسبب سياسة الحزب الشيوعي الذي خسر آلاف المناضلين لسياسته اليمينية ومهادنته نظام قاسم وبعدها نظام البعث بعد عام 1968.

كانت بغداد لا تعاني من وجود بعض الأشقياء في محلاتها ولم تفكر أن ما سيأتي من شقاوات وأشقياء أكبر بكثير مما يتصوره أي معاصر لتلك الأحداث.

تحوّل (نظام الشقاوة) في بغداد إلى مؤسسة كبيرة قام بصنعها واستخدم الحزب الشمولي (البعث)، فقد وضع لبنات تلك المؤسسة (العتيدة) صدام بالتعاون مع ناظم كزار وسموها (حنين) وهو حنين للقتل والإرهاب، ولا غرابة أن تولد تلك المنظمة العنيفة على يد مجرمين كبيرين تربيا في محافل القتل عام 1963، فتمت ولادة تلك المنظمة على يديهما.

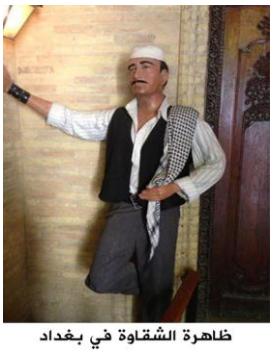

ظاهرة الشقاوة في بغداد

ترعرعت تلك المنظمة ونمت مع مرور السنين ووصول البعث إلى الحكم وكان زعيمها يأمر أعضاؤها بقتل هذا أو ذاك من الخصوم السياسيين أو البعثيين.

كان أول ضحية لهذه المنظمة ناصر الحاني وزير خارجية أو حكومة بعد إنقلاب 17 تموز 1968 على يد عضو القيادة القطرية وهاب الأعور وبعد تنفيذ العملية تم التخلص منه أيضا عن طريق حادث إنقلاب سيارته المدبّر.

استمر الإرهاب وتطور في أحضان (حنين) وأخواتها من المخابرات والأمن بقيادة ناظم كزار للأمن وسعدون شاكر للمخابرات، وكان الاثنان من كبار المؤسسين لهذه المنظمة.

ناصر الحاني

كانت قوائم السياسيين من اليسار الشيوعي واليمين القومي تطل علينا كل يوم من أيام البعث الاشتراكي وكانت إطلالتها مرعبة. فقد كنا نسمع بأن الخضري الشيوعي المعروف وجدت جثته ملقية على طريق صدر القناة واستخدم الرفاق مختلف طرق القتل، فمثلاً قتل صهر البكر زوج بنته بالتلاعب بمكابح السيارة، فسقطت سيارته في نهر دجلة في شارع أبي نؤاس. كما قام ناظم كزار بالتخلص من عشرات المناضلين عن طريق تذويب أجسادهم بأحواض من التيزاب كما حدث مع صاحب الدخيل، كذلك استخدموا المثارم لتقطيع الأجساد.

ذكرت الكاتبة جمانه مكي كبة في كتابها (شاهد عيان) الصادر عن دار الورّاق بيروت 2010 أن والدها مكي كبة وكيل وزارة المواصلات سقط ضحية دائرة المخابرات لكشفه العلاقة بين جهاز المخابرات وما سميّ بأبي طبر، وذلك عن طريق دائرة التليفونات التي كان مسؤولاً عنها، والتي سجلت تلك المكالمات بين المجرم المذكور ودائرة المخابرات.

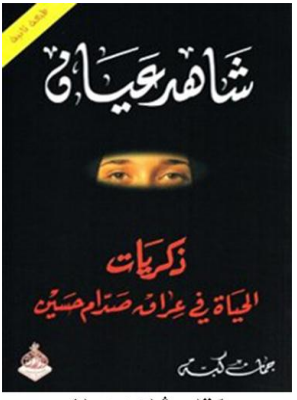

كتاب شاهد عيان

بعد معرفة المخابرات بذلك الأمر اعتقل الأستاذ مكي كبة وعذّب في دائرة المخابرات لفترة طويلة وبعدها حكمت عليه محكمة الثورة بالسجن لمدة سنة لإهماله في القيام بواجباته.

وكان الرجل معروفاً بنزاهته وعفته وإدارته الحكيمة لوزارة المواصلات. لكن الدائرة المذكورة وزعيمها صدام حسين لم تحترم المركز المرموق وعفة الشخص ونزاهته حيث كان همّ دوائر الأمن الحفاظ على نظام البعث وزعيمه صدام بمختلف الوسائل العنيفة.

وكان من أهم الجرائم التي روعّوا بها سكان بغداد، جرائم (أبو طبر) الذي كان يتسلل إلى البيوت الآمنة ويقتل ويقطع أصحابها بطبره.

عاشت بغداد وأهلها أياماً مروّعة فكان سكانها لا ينامون الليل، يعملون حراساً لعوائلهم خشية تسلل أبا طبر إلى مساكنهم وارتكاب جرائمه بحق عوائلهم البريئة.

حاتم كاظم هظم " أبو طبر "

وكان صدام يأمر باغتيال رفاقه، الذين عملوا معه بإخلاص من أعضاء القيادة القطرية كعبد الكريم الشيخلي، عبد الله فاضل، ورئيسه الذي أحبه واصطفاه أحمد حسن البكر، الذي مات مسموماً.

وكان آخر جرائمه بحق رفاقه الكبار أعضاء القيادة القطرية عدنان حسين، محمد عايش وبقية الرهط. وقد اصطنع محاكمة شكلية لإدانتهم في قاعة الخلد. وكم كانت عزيزة دمعته التي أراقها حزناً على الرفاق وهو يحاكمهم. كما وتخلص من وزير الخارجية مرتضى الحديثي وشقيقه كردي باغتيالهم في السجن. وكانا من أخلص الناس لصدام.

ساعد الله أهل بغداد، الذين كانوا يستنكرون وجود بعض الشقاة في محلاتهم. فقد ابتلاهم الله ببلاء أعم وأشمل وأقسى، بدأ بمنظمة حنين وانتهى بمنظمات الأمن، التي كانت تغتال بشكل علني ونظامي جميع خصوم وأصدقاء صدام الذي (يزعل) عليهم.

المدعي العام في محكمة الشعب

والأنكى والأقسى أن ثقافة العنف التي عاشها أهل بغداد، منذ ثورة 14 تموز حتى دخول الأمريكان بغداد الحبيبة، وما عاناه ويعانيه أهل بغداد من جرائم الميليشيات المنتشرة في محلات بغداد تقتل على الهوية من الشيعة والسنة، فالإرهاب المستورد للعراق قتل عشرات الآلاف من الأبرياء ومقابل ذلك قتلت المليشيات واستكملت العدد من ضحاياها من سنة وشيعة وما زالت تعبث فساداً في شوارع العاصمة التي عرفت الحب والليالي الجميلة، لتتحول تلك الشوارع إلى شواهد للموت المجاني على أيدي أساطين المليشيات المجرمة.

أي مصير حلّ بمدينتي الحبيبة بغداد ؟ ؟

كانت أولى خطواتي في العاصمة الحبيبة التوجه إلى باب المعظم، وركوب حافلات نقل ج المساة (الأمانة) تلك السيارة الحمراء ذات الطابقين، والمستوردة من شركة (ليليان) الإنكليزية وهي نسخة طبق الأصل من سيارات الركاب البريطانية.

صعدت الطابق الثاني من الأمانة باص المصلحة وجلست في صدارة الطابق كي أتمتع جيداً بمناظر مدينة بغداد الجميلة، التي افتقدتها لفترة من الزمن.

شوارع بغداد في الخمسينات

ذكرتني تلك الجلسة بأيام مضت من فترة صباي، حين كنا نزور بغداد في العطلات الصيفية. وكان من الذكريات المحببة للنفس ركوب حافلة نقل الركاب والتجول في شوارع بغداد العريضة والتعرف على مرافقها المختلفة، من بنايات وحدائق وعمدان شارع الرشيد المتناسقة وطول الشارع الذي يبهر الأبصار.

جلست متذكراً ومفكراً بحالي وبما سوف ألاقيه في هذه المدينة الكبيرة. وكان أول ما تبادر إلى مخيلتي من الأفكار والذكريات، حديث محمد ابن (بهية) الخبازة صديق طفولتي حيث كانت أمنيته ركوب حافلة الركاب الحمراء، كنا معه في أيام الطفولة نجلس قرب التنور منتظرين من والدته خبازة دارنا الطيبة أن تتحفنا بأول رغيف خبز من خبزها اللذيذ، وكانت تلك ألذ من أية طبخات معروفة كالسيبيناغ والفسنجون، كانت لذتها في نكهة الخبز الطازج الخارج لتوه من التنور. وكانت اللذة التي يبعثها في نفوسنا من أمتع ما جربته في حياتي، وما زلت أتذكره في سنوات عمري المتأخرة تلك الدقائق

في انتظار رغيف الخبز، وكيف كنت مع صديقي نلتهمه بكل شوق ولذة كبيرة

خبازة

كان محمد حين أحدثه عن جمال بغداد بحدائقها وملاهيها وجمال نسائها، يكاد يطير مع كلماتي إلى تلك الأجواء ولكن أهم ما استرعى انتباهه حافلة نقل الركاب الحمراء ذات الطابقين. والذي كان يمنّى نفسه بركوبها ومشاهدة جماليات المدينة الكبيرة. لكنه في تلك الساعة كان المسكين يقبع في سجن الحلة وهو فتياً في السابعة عشر من عمره حاول قتل شقيقته اللعوب، والتي لاكت الألسن سمعتها السيئة. فلم يستطع صبراً على جرح كرامته فاستل خنجره وطعنها طعنات مميتة ليتخلص من العار الذي لحقه في مدينتنا الضيقة الأفق والضيقة الأزقة، والتي تنتشر فيها مختلف الشائعات إلا أن الأخت اللعوب لم تمت.

حكم عليه بثلاث سنوات واعتقد أنه سوف لن يتخلى عن فكرة قتلها لما سببت له من عار طيلة وجوده في المدينة.

كان محمد الطيب يتمتع بالسمعة الجيدة في أوساطنا، وكانت مهنته (عربنجي) أي سائق العربة التي تجرها الأحصنة. وكان يدعوني من آن لآخر في الركوب إلى جنبه والتبختر بعربته في شوارع

النجف من ميدانها الواسع إلى حديقة غازي الكبيرة وكنا نتمتع بتبادل النكات والأحاديث وما يحصل من عثرات في ركوب كبار السن والنساء لتلك العربة ونسميها بالعامي (الربل).

عربة الحصان في بغداد

كنت أقارن بين تلك النزهات البريئة في الربل وبين هذه النزهة المترفة والجميلة في قمة الأمانة وكأني أمتطي حصاناً طائراً سينقلني من عالم جميل إلى عالم أجمل منه.

وكانت بغداد في الخمسينيات من أحلى مدن العالم في مغانيها ومتاحفها وشوارعها النظيفة وحدائقها الغناء. وكانت مرعى لصباياها الحسناوات وهن يتبخترن حين خروجهن من سينما روكس أو الخيام. وكان خيالنا الجامح يذهب بعيداً في أجسادهن الرشيقة، نحن المحرومون من تلك المشاهد الرائعة.

شوارع بغداد في الخمسينات

نذهب لساعات بدون النزول من المركبة

ذهاباً وإياباً إلى الأعظمية حتى مرقد الإمام الأعظم وأنا في غاية الإنشراح، شاهدت تلك القباب الزرقاء الشامخة والجامع الكبير متذكراً أيام الصبا وزيارتنا لهذا القبر مع أصدقائنا من آل البغدادي وبعدها عادت السيارة إلى الباب الشرقي مخترقة شارع الرشيد ذو العمدان الكبيرة المتناسقة والرشيقة، وكانت محلات ودكاكين الملابس ومختلف الحاجيات الأنيقة على طرفي الشارع. وكان في وسطه محل (أورزدي باك) الذي كان متعة للشباب لما يحتويه من ملابس وحاجيات رجالية ونسائية أنيقة.

وكانت مقهاه ومكتبته تجذبنا كلما زرنا ذلك المحل الجميل. وقسم الاسطوانات الشرقية والغربية، واسطوانات كلاسيكية، بيتهوفن، موزارت، باخ وغيرهم من كبار الموسيقيين نراها معروضة أمامنا في واجهة ذلك المحل.

الجسر المعلق

تجولت لساعات في سيارة الأمانة لرؤية معالم بغداد التي لم أشبع سابقاً ولاحقاً في التجول الممتع في شوارعها، وكم كنت فرحاً أنني سأقضي سنواتي المقبلة في هذه المدينة.

في اليوم التالي لوصولي بغداد، وكان وصولي في شهر

أيلول من عام 1954، توجهت إلى كلية الحقوق الواقعة في منطقة الأعظمية قرب الجسر الحديدي الذي يمر بجوارها، ولابد لي من التعليق على تسمية الكلية بالحقوق.

كانت التسمية قد جاءتنا من التركة العثمانية، والتي لايمكن أن تعبر عن حقيقة ومناهج الدراسة التي تدرس في الكلية. كانت عبارة عن ترجمة خاطئة للكلمة الفرنسية (draw) التي تعني الحق كما تعني القانون. فسميت الكلية بتسمية الحق وليس القانون وبعد سنوات طويلة تغيرت تسميتها لتعود إلى التعبير الصادق عن القانون. فدراسة الحقوق كانت قاصرة. حيث لا يدرس الطلاب الحقوق العينية والأصلية فقط بل يدرسون القوانين المختلفة من الدستور والقوانين الجنائية والمدنية والتجارية والدولية، إلى دراسة الحقوق والالتزامات التي تفيض بها كتب القانون المختلفة. فأصبحت الكلية كلية القانون.

ذهبت إلى إدارة الكلية لمعرفة المطلوب مني للانتساب إليها. طلب موظف الإدارة عدة وثائق، وثيقة التخرج من الثانوية، وثيقة عدم المحكومية ووثيقة حسن السلوك. حصلت ببساطة على وثيقة عدم المحكومية من الدائرة التي كانت تقع في البتاويين.

وعند ذهابي إلى القشلة للحصول على حسن السلوك حيث تقع الدائرة التي تمنح الوثيقة المذكورة من مركز شرطة القشلة.

توجهت إلى الشباك الخاص بتلك الوثيقة وقلبي تزداد دقاته خوفاً من العراقيل التي سمعت عنها الكثير ممن تقدم إليها ولم

يحصل على حسن السلوك لاتهامه بتهم سياسية وفي مقدمتها الانتساب للحزب الشيوعي. وكنت آنذاك أعمل في صفوف اتحاد الطلبة التي تعتبره الدولة من منظمات الحزب الشيوعي. وكنت أخشى أن تكون المعلومات عن نشاطي في صفوف طلبة النجف قد وصلت دائرة التحقيقات الجنائية.

حين وصل الطلب إلى المسؤل الجالس أمامي في تلك الغرفة الضيقة، وكان أصلعاً ذو سحنة عدوانية ويدعى عبد الرحمن السامرائي. وكان أول سؤال وجهه لي بعد أن قرأ اسمي واسم والدي واسم مدينتي، هل أنت من الشيوعيين... واعقبها بكلمة نابية استفزتني. وأضاف أنكم أبناء تلك المدينة الملعونة كلكم شيوعيون، أجبته بعدم انتسابي إلى الحزب المذكور.

وكان سؤاله الاستفزازي الثاني، ما هي علاقتك وقرابتك للشيوعي القذر محمد راضي شبر، المسجون آنذاك بتهمة الشيوعية. فأنكرت علاقتي وقرابتي للشخص المذكور وكنت في قرارة نفسي ألعن الظروف التي دفعتني لمواجهة ذلك المسخ، الذي لا يعرف سوى التهجم على الشيوعية وكلمات السباب المقذفة وتمنيت أن لا أرى ذلك الوجه ثانية كما كنت ساخطاً على طلب الكلية الأكاديمية التي تدرس القوانين ان تطلب من المتقدم وثيقة حسن السلوك المنافية لحقوق الإنسان في العمل السياسي. وكانت تلك أول مواجهة لي مع أجهزة الدولة القمعية، التي كنت أعمل مع زملائي والوطنيين من أبناء العراق لإزاحتها ولم يكن اعتباطاً ومنع ذلك الشرط المهم

لحرمان السياسي من دخول الكليات وإنما كان نوعاً من الإجراء الوقائي لمنع الطلبة اليساريين من دخول الكليات، فوجودهم يشكل خطراً على الدولة البوليسية.

حصلت بعد عدة أيام من الإنتظار على تلك الوثيقة والتي بدونها لم يكن بمقدوري مواصلة الدراسة في كلية الحقوق. وكان وصولي إلى بغداد في فترة من أقسى الفترات التي يمر بها العراق. فقوانين إسقاط الجنسية عن المنتسبين للحزب الشيوعي ومنظمات الطلبة والعمال والشباب، ومنع كافة النشاطات السياسية، وغلق الصحف الوطنية. حتى اعتبار حركة أنصار السلام من الحركات التخريبية في نظر حكومة نوري السعيد.

كانت تلك الإجراءات والقوانين المكبلة للحرية قد صدرت بعد انتخابات مجلس النواب، الذي استطاع الوطنيون أن يحصلوا فيها على عشرة نواب من مجموع (120 نائب) إلا أن ذلك لم يرق للرجعية الحاكمة بقيادة نوري السعيد، رئيس حزب الاتحاد الدستوري. لجأ السعيد إلى حل البرلمان واصدار تلك القوانين المكبلة للحرية، وفتح أبواب السجون للمناضلين اليساريين واسقاط الجنسية عن العديد من أحرار العراق وفي مقدمتهم كامل قزانجي، اليساري المصلاوي المعروف بمواقفه الوطنية ودفاعه في المحاكم عن الديمقراطيين واليساريين. كما أسقطت الجنسية عن المناضل العنيد العامل في حركة السلم الوطنية توفيق منير.

في تلك الظروف المتشنجة والضغط البوليسي والحرمان من الحريات دخلت بغداد وانتسبت إلى كلية الحقوق، التي زادت معرفتي بالقوانين المختلفة وفي مقدمتها الدستور الذي يمنح الحريات ويساوي بين كافة المواطنين، ولم يكن صدفة ان يحرم الكثير من دخول تلك الكلية التي تعلم الناس مالهم من حقوق وما عليهم من التزامات. بل كان الحكم يريد مجتمعاً جاهلاً لا يفقه ماله وما عليه. ولا يتعرف على حقوقه الدستورية تلك الحقوق التي أقرتها مواثيق حقوق الإنسان. الحق في الحرية، التظاهر، العيش، حق إبداء الرأي وبقية الحقوق المدنية.

كانت كلية الحقوق منذ تأسيسها مرعى لأبناء الذوات الذين استطاعوا من خلالها أن يصلوا إلى مواقع الحكم فأغلب حكام العراق في تلك الفترة من الحكم الملكي كانوا من خريجي كلية الحقوق. وكانت الندرة من الخريجين ممن كانوا ينتمون إلى الأحزاب الوطنية. بل الغلبة كانت لأبناء الذوات والأغنياء، الذين ملكوا حصة الأسد في تلك الكلية.

بعد إكمالي للوثائق المطلوبة بقيت أنتظر الإعلان عن قبول الطلبة. وكانت تلك السنة قد شهدت إلغاء المقابلة للطلاب التي كانت تلعب دوراً مهماً في قبول الطالب للمضاعفات السياسية والطائفية التي شهدتها أروقة الكلية.

كان للحادثة التي شهدتها الكلية قبل سنتين عند مقابلة أحد الطلاب المتخرجين من مدينتي النجف (نوري شيرعلي) الذي استفزه

رئيس اللجنة (حسن ذنون) حين سأله عن مدينته فأجابه أنها مدينة النجف الأشرف، فوجه له سؤالاً وقحاً لا ينم عن ثقافة وإدراك، ولا يليق بموظف في كلية الحقوق التي لا تعرف الطائفية أو العنصرية. سأله ما الفرق بينك وبين الحمار ؟؟ أجابه الطالب بكل شجاعة وعزة نفس، هي هذه الطاولة التي بيني وبينك.

خرج الطالب وتوجه إلى مجلس الأعيان وأخبر أحد كبار السياسيين السيد عبد المهدي المنتفجي بما حصل، فأقام السيد الضجة في مجلس النواب والأعيان طالباً إلغاء المقابلات الغريبة في كلية الحقوق التي تتضمن التعدي على الطلاب وانتماءاتهم المدينية والدينية، ونقل الأستاذ على أثر تلك الحادثة وألغيت المقابلات مع الطلبة. وحل المعدل وأصبح الفيصل لقبول الطلاب وكان معدلي عالياً آنذاك 70 % حيث أهلني لدخول الكلية وكان تسلسلي في القبول العاشر.

ومنذ اليوم الأول بدأت حياتي الجديدة في تلك الكلية التي حصدت فيها الكثير من المرارات تلميذاً وأستاذاً

3

لم تكن الدراسة هي الاختيار الأول حين انتميت إلى كلية الحقوق، فقد كنت مضطراً للالتحاق بتلك الكلية. كما أن العمل السياسي الذي مارسته استمراراً لما كنت أقوم به من نشاط في مدينة النجف، كان هو الآخر في المرتبة الثانية من اهتماماتي الحياتية.

إن الحلم الذي تملكني منذ صباي بالعيش في مدينة بغداد ملك علي حياتي، وها هو يتحقق بعد الآن. بدأت أدور في شوارع بغداد العريضة والنظيفة والمليئة بالشباب الأنيق والصبايا الجميلة مقارنة بتلك الأزقة الضيقة والبيوت المتهرئة والأوساخ المتراكمة في زوايا تلك الأزقة في النجف.

وكان دجلة النهر العريض الذي تغنى به الركبان والشعراء هو محط زياراتي المتكررة، فمدينتي الصحراوية كانت محرومة من الأنهار. وها هو دجلة الخير والبساتين المحيطة به من كل جانب. فبغداد الخمسينيات كانت تعج بالبساتين الكثة في كرخها ورصافتها، وهل ينسى شارع طه القريب جداً من النهر، حيث كنا في عطلاتنا الصيفية نقضي في ربوعه الأنيقة أجمل الأوقات وكان النهر مقصدنا ليلاً ونهاراً لما تمتع به من موقع رائع ومياهه المنطلقة في

تيار متميز يجلب أنظار المارة بما يملكه من زهو ألوانه البهيجة المتغيرة مع الشمس من شروقها حتى غروبها. تلك الألوان الشقراء والبيضاء وهي تتماوج مع اندفاعة الزوارق المارة بالنهر العريض. كان لذلك النهر وما يحيط به من البساتين الغناء وقع لا يمكن وصفه. كنا صغاراً نمرح ونلعب وسط بساتين النخيل والفواكه وأشجار الزينة بكل ما نملك من طاقة ونحن في غاية السعادة. فلم تكن بغداد الخمسينات مزروعة بالبيوت والعمارات الكونكريتية والتي غيرّت جمال مناظرها وبهجة بساتينها، كما غيرّت جوها المعتدل في الصيف، ذلك الجو الذي اختاره الخليفة أبو جعفر المنصور ليأنس إليه حين قرر بناء عاصمته بغداد.

لن أنسى وأنا على مشارف الثمانين تلك الليالي الصيفية في حدائق بغداد الباردة، وكنا نتلحف البطانيات في لياليا على سطوح بيوت بغداد متوقين برد نسيمها العذب. أين أنت يابغداد الآن من تلك بغدادنا الحبيبة، فقد شوهها البشر والحكام حتى غدت عبارة عن مكبات للنفايات والأوساخ.

كنت أعيش ذلك الحلم في أعوام الخمسينات، الذي اكتنزته عن بغداد في صباي. وأنا أبحث منذ وطأت قدمي مدينتي الحبيبة عن السعادة والمرح والفرح في أماكن البهجة والسمر. في منتزهاتها وشواطئها الجميلة.

درت ولازلت أدور في محلات بغداد محاولاً المقارنة بين ما كانت عليه منطقة الكرادة المليئة بالبساتين الكثيفة وما هي عليه الآن من

عمائر بأطنان من الكونكريت وعوائق كونكريتية تقطع أوصال ذلك الجسد الجميل الذي كان ينساب كما ينساب الماء الرقراق. ونحن نسير متمتعين بجمال هندسة بيوتها وجمال بساتينها التي جرّفت، وقضي على الآلاف من أشجار النخيل المحمل بأطايب التمور البرحي، الخستاوي، الخضراوي، والسكري وأنواع التمور الأخرى، كلها تقريباً اختفت وأصبحنا نشتري البرحي بآلاف الدنانير.

الرسم على الحواجز الكونكريتية بعد 2003

لن انسى حين عشت سنتي الأولى في منطقة الكرادة خارج شارعها الذي كان ينتهي عند ساحة الحرية، ومن تلك الساحة حتى المسبح كانت البيوت متفرقة تفصل بينها الأشجار حتى تلاصقت وتكثفت بعد ذلك وأصبحت قطعة واحدة من الكونكريت الذي يلهب جوها صيفاً بما يكتنزه من حرارة الشمس.

أتذكر أننا كنا نذهب إلى ساحة الحرية آخر مطاف باص الأمانة، ونذهب إلى البساتين القريبة نتدرب على الأناشيد الوطنية بعيداً عن رقابة رجال الأمن وكنا نستعد لإحياء الذكرى العاشرة لتأسيس اتحاد الطلبة العراقي. فلم تكن هنالك جامعة بغداد فقد

وضع الحجر الأساس لها عام 1960 الزعيم عبد الكريم قاسم، وبنى البرج فيها الذي بقي قائماً سنوات طويلة بدون وجود الجامعة.

كنت في تلك السنين من شبابي أتوق للتعرف على فتاة، أتخذها صديقة لي بعد سنين الحرمان من الاختلاط، بل رؤية فتاة سافرة في مدينتي الصحراوية الجرداء، ما أقسى سنين الحرمان التي عشناها ونحن نحلم بفتاة جميلة نأنس لها ونعيش أياماً سعيدة مع الجنس الآخر، فقد كنا لا نرى ولا نصادق سوى الفتيان محرومين من لقاء الفتيات في مدينتنا المحافظة والتي تمنع ذلك.

وكانت كليتنا كذلك يسودها البؤس النسائي، فلم تملك بين حناياها سوى بعض الفتيات المغلوبات على أمرهن، والخائفات بل المرعوبات من الاختلاط مع الجنس الآخر مع الجنس الخشن من الرجال. وكان عددهن لا يتجاوز في كل مرحلة الأربع أو الخمس طالبات، وكن يهرعن بعد انتهاء المحاضرة إلى غرفة البنات للاختباء حتى الدرس الآخر.

طلبة كلية الحقوق

وهكذا عشنا في كلية يميزها البؤس والحرمان من التعرف إلى فتاة صديقة أو زميلة في ذلك الظرف المؤلم، الذي عاشته بنات الكلية.

كنا نذهب إلى الكليات الآخرى بحجة زيارة أصدقائنا من زملاء الدراسة الثانوية المنتشرين في مختلف كليات جامعة بغداد، وكانت ثلاث كليات تستهوي قلوبنا لكثرة الجنس اللطيف في جنباتها، الطبية، الأداب، دار المعلمين العالية وكانت الأخيرة هي المفضلة لدينا لكثرة فتياتها ووجود أصدقاء قريبين منا. والامتيازات التي توفرها للطلبة والطالبات الوافدين عليها. حيث تملك أقسام داخلية للطلبة والطالبات. وهذا يوفر لهم الكثير من المصروف المبذول على إيجار الغرف والفنادق. كما أن الداخل إلى هذه الكلية يضمن وخصوصاً الفتيات التعيين في المدارس الثانوية المنتشرة في أرجاء القطر العراقي، خلافاً للكليات الأخرى التي يصعب على خريجيها ضمان وظيفة في الدولة.

ما أجمل الطريق الذي نسلكه في توجهنا إلى مرابع دار المعلمين العالية. كنا نمر عبر مقبرة الإنكليز التي تضم قتلاهم في الحرب العالمية الأولى، وقتلى الثورة العراقية لعام 1920. ما أجمل الصروح الصغيرة المرمرية المنتشرة بين أشجار الكالبتوز والدفلة وشجيرات الروز وبقية الزهور الموسمية، وهذا هو شأن المقابر في البلدان الغربية تزينها الخضرة وكثافة الأشجار ليهنأ الراقدين فيها بالتمتع بجمال الطبيعة، التي حرمهم الموت منها. بخلاف قبورنا المسكينة

المنتشرة في الصحارى الجرداء، والتي تشكو دائماً من عواصف الرمل وارتفاع درجات الحرارة، خصوصاً مقبرة دار السلام الكبيرة التي تضم رفات مئات الآلاف من الموتى، الساكنين جنب الإمام علي ابن أبي طالب (ع) والذي يعتبرونه شفيعهم في الدنيا والآخرة لضمان دخولهم الجنة.

المقبرة البريطانية فى بغداد

كنا نصل إلى دار المعلمين العالية ونحن في بهجة وترقب للتعرف على إحدى الفتيات الجميلات من الطالبات، وكان أحد أصدقائنا رضا محاط بكوكبة من الفتيات الجميلات، وما أحلى تلك اللقاءات البريئة، ونحن بالرغم من خجلنا السرمدي، الذي جلبناه معنا من مدينتنا المحافظة، إلا أن ابتسامات تلك الفتيات وعدم تحفظهن من الاختلاط بث فينا الشجاعة للتحدث معهن في مختلف المواضيع، إلا أن ما يكدر آنذاك لم نكن نملك في جعبتنا من الأحاديث الشيقة والمتنوعة سوى الحديث عن السياسة، الذي نعرفه لممارستنا للسياسة آنذاك، وكم حاولت بمختلف الوسائل البسيطة، التي

امتلكها أن أقيم علاقة مع إحداهن، ولكن الفشل كان مصير جميع تلك المحاولات، فأغلبهن كن على علاقات حميمة مع زملائهن من طلبة الكلية واضعات ومبرمجات لخطط المستقبل التي تنتهي بالزواج في نهاية الأمر.

وكانت هناك محاولة أخرى للوصول إلى صداقة مع إحدى الفتيات في الكلية الطبية. دعاني صديقي عبد الكريم الكامل إلى حفلة تعارف السنة الأولى في كليتهم، وكنت الوحيد من خارج الكلية، مما دعاني إلى التردد لحضور تلك الحفلة، لكنه طمأنني بحصوله على موافقة القائمين عليها.

في تلك الأمسية من أماسي بغداد الخريفية المنعشة للروح بجمال جوها وعذوبة نسيمها، فخريفنا أجمل كثيراً من ربيعنا المشبع بالعواصف الرملية، في تلك الأمسية من أماسي تشرين الثاني ولا أذكر التأريخ، لكني أذكر أول حفلة مختلطة حضرتها مع صديقي، مما بقي عالقاً في مخيلتي أنا على مشارف الثمانين من عمري.

تزينت بأحلى زينة، ولبست بدلتي السوداء التي كنت أدخرها إلى مثل تلك المناسبات، ودخلت إلى قاعة الحفل، حيث كان صديقي ينتظرني، كانت الطاولات مرتبة بشكل أنيق اجتمع إلى كل طاولة أربعة أو خمسة من الطلاب والطالبات، وكان عددنا مع صديقي أربعة، وكانت المفاجئة وجود فتاة على درجة من الأناقة والجمال. قدمني صاحبي لها ولبقية الجالسين فعرفت اسمها، الذي كان وقعه كوقع موسيقى بحيرة البجع بذلك الفالس الذي يحرك الموتى قبل

الأحياء. كان اسمها سلمى ذات الملامح الجنوبية السمراء بعيون سوداء كبيرة ووجنتين يشعان بهاءً وجسد رشيق بامتلاء. منيت نفسي أن أحظى بمعرفتها وإقامة علاقة صداقة وزمالة معها. لكن خجلي وتحفظي حال دون أن أتمكن من التحدث إليها وجلب انتباهها، كنت اختلس النظر إلى وجهها وجسدها الريّان وهي منشغلة مع أحد الجالسين وحين تلتقي عيوننا، كنت أطأطأ رأسي خجلاً، لكنها تعرف ما أضمره من إعجاب بها، وهكذا مرّت تلك الأمسية وأنا منشغل عن فقرات الحفل محاولاً إيجاد طريقة لمواصلة الحديث معها لكنني فشلت في النهاية. وخرجت من الحفلة صفر اليدين.

ولم أتوقف عن محاولاتي بالتعرف على فتاة أبثها نجواي وحرماني، فقد كنت مقتنعاً بأن المرأة هي الملاذ التي تغني حياة الإنسان وتبعث فيه الحيوية والعزيمة وحب الحياة، وكانت قراءتي لفرويد وتأكيده على (اللبيدو) وتأثير الجنس على نشاط المرء في الحياة، ولم تكن تلك اهتماماتي الرئيسية في وجودي ببغداد، بل كان نشاطي السياسي، والذي سأتحدث عنه، في الصفحات القادمة، هو مركز اهتمامي.

في إحدى زياراتي إلى كلية الآداب، وكنت أقوم بتلك الزيارات بحجة الاتصال بالزملاء الناشطين في اتحاد الطلبة. كان منعم المخزومي صديقي وزميلي ومن الوجوه البارزة في النشاط الطلابي الوطني والسياسي. وقد أحببته كثيراً، وكنت أزوره من آن لآخر. وفي إحدى تلك الزيارات وجدته جالساً في نادي الكلية محاطاً بعدة

فتيات وما أكثر الطالبات في كلية الأداب في سنين الخمسينات من القرن الماضي. استقبلني الرجل بالترحاب وعرفني على الجالسات وكانت إحداهن (هيفاء) متميزة عن بقية الفتيات بجمالها الهادئ عيون سوداء تبث شعاعاً مليئاً بالحب وشعر طويل أسود، وجنتين مدورتين مع حمرة خفيفة، وجسد رشيق. لا أدري هل تلك الصفات الجميلة من جذبني إليها، أم أن عوامل كيماوية كما يقولون جعلني أميل إليها. وخلال الجلسة التي تشعبت إلى الحديث عن النشاط الطلابي، وكان ذلك عام 1956 المليء بالأحداث الكبرى في العالم العربي، وعراقنا الواقع تحت وطأة الحكم الدكتاتوري. ولاحظت مساهمتها النشطة بالحديث، مما يدل على معرفتها بالنشاط السياسي الطلابي.

استمرت الجلسة عدة ساعات، ولم تحاول مفارقتنا، لعلي كما صوّر لي خيالي، أنها انجذبت نحوي كما انجذبت إليها. وودعتهم وأنا لا أريد وداعهم، كنت في حالة من الانتعاش والتمني بعد معرفتي لتلك الفتاة الفاتنة. كنت أسأل نفسي، هل هو القدر وضعها في طريقي، أم ان الصدفة هي التي جمعتنا. لم أكن متيقناً من قدرتي على الارتباط بها. فكرت كثيراً في وضعها، لعلها تملك علاقات حميمة مع أحد طلاب الكلية، أو أي شخص آخر من معارفها وهي بذلك الجمال الذي يسترعي انتباه الطلاب وما أكثر المتصيدين في الكليات.

بعد أسبوع من ذلك اللقاء عدت بحجة المشاغل الطلابية وكنا نستعد لسفرة مشتركة في نيسان ذكرى نشوء اتحاد الطلبة، ولكن دافعي الرئيسي كان لقاء هيفاء.

بحثت عن صديقي منعم فلم أجده في نادي الطلبة. ولكن بعد انتظاري حتى فرصة الدرس جاء صديقي متبختراً في مشيته وابتسامة كبيرة تحلي وجهه الصبوح. جلسنا سوية وكنت متردداً في سؤاله عن هيفاء خشية افتضاح ميلي لها. بعد دقائق قليلة أطلت بقامتها الممشوقة واستحلت أحد الكراسي القريبة منا. لم أخفي فرحتي بقدومها وكانت نظراتي لها تفضح سر إعجابي بها.

تحدثنا طويلاً عن نشاطاتنا وكان موضوع التعاون مع القوى الأخرى من الطلبة القوميين والبعثيين هو محور حديثنا وفي نهاية الجلسة اقترحت على منعم وهيفاء الذهاب الى سينما الخيام، التي كانت ستفتح أبوابها في الأسبوع القادم عارضة فيلماً مغرياً بإعلانه (هيلين ملكة طروادة) وكان الإعلان عن الفيلم في غاية الإغراء. عارضاً فتاة شقراء بإطلالة جميلة مغرية تنادي تعالوا لتشاهدوني، وقصة الفيلم أكثر إغراءً فهي تدور حول أسطورة من أساطير اليونان الممتعة.

وافق منعم كما وافقت هيفاء على اقتراحي فخرجت منتصراً من تلك الجلسة أمنّي نفسي بفرص قد توثق علاقتي بهيفاء.

يحلو لي ويسرني أن أتذكر بغداد الحبيبة في تلك السنوات، سنوات الخير والزمن الجميل. فقد عرفت بغداد في سنين الخمسينيات من القرن الماضي أجمل وأبهى السينمات المعروفة في الأقطار العربية. فقد كانت مزدهرة بمبانيها الشاهقة وأفلامها الحديثة.

كانت السينمات هي إحدى مجالات اللهو العائلي الراقي، وتميزت بجلبها للأفلام الحديثة، سواء من أمريكا أو أوربا، كانت تخاطب الطبقة المثقفة. فقد تحولت أفضل الروايات والمسرحيات العالمية إلى أفلام، سواء منها الكلاسيكي أو الرومانسي أو الأدب الحديث. كما تناولت الأفلام الشخصيات العالمية، التاريخية منها أوالحديثة كحكاية البطل الروماني (سبارتاكوس) وشخصية المسيح وملوك إنكلترا وفرنسا أيام ازدهار الدولتين وصوّرت أيضاً الثورات السياسية في أوربا وأمريكا، كالثورة الفرنسية والثورة البلشفية. وأرّخت قيام الإمبراطوريات وسقوطها كما حصل مع الإمبراطورية العثمانية.

كما أنتجت لنا أفلاماً عن الحروب المدمرة العالمية منها والمحلية والإقليمية كالفيلم الهائل بنوعيته (ذهب مع الريح) وصور الحرب الأهلية الأمريكية، الذي أبدع فيه الممثل (كيرك دوكلاس) كما أنتجت لنا الأفلام الكوميدية كأفلام (شارلي شابلن) الفنان العظيم والمبدع.

كانت السينمات في بغداد الخمسينات أفضل السينمات في العالم، من حيث سعة المباني والكراسي الاسفنجية المريحة،

والتصميم والتأثيث. ولذلك فلا غرابة، إذا كانت العوائل البغدادية الراقية المثقفة ترتاد دور السينما ليلاً، خصوصاً الدور الثاني، الذي يبدأ في الساعة التاسعة حتى الساعة الثانية عشر ليلاً.

كان أصحاب دور السينما يحرصون على عرض الأفلام العالمية في نفس الوقت الذي تعرض فيه في مدن الغرب الكبرى كلندن وباريس وذلك لأن شركات الإنتاج السينمائي مثل فوكس القرن العشرين،متروكولدين ماير ودارين برذر. كانت تعرض أفلامها في بغداد شراكة مع أصحاب دور السينما . ومن أهم دور السينما

1- سينما غازي في الباب الشرقي مجاور حديقة غازي (الأمة) لاحقاً

2- سينما روكسي الشتوي والصيفي وركس في نهاية شارع الرشيد

3- سينما النصر في شارع السعدون قرب نصب الجندي المجهول السابق، الواقع في ساحة الفردوس. وكانت هذه السينما من أكبر السينمات في الوطن العربي والشرق الأوسط.

4- سينما الخيام الفخمة والحديثة بكل شيء، بكراسيها القديقة المتحركة، وجدارياتها العظيمة، التي ملأت جدرانها الغربية والشرقية

5- سينما غرناطة، وكانت تقع في نهاية شارع غازي (الكفاح) عند التقائه بالباب الشرقي.

6- سينما أطلس في شارع السعدون البتاويين

7- سينما الأورفلي الواقعة في شارع السعدون.

وهناك سينمات عديدة كانت تعرض الأفلام العربية، منها سينما الحمراء الشتوي والصيفي، سينما الأعظمية، الرشيد، وهناك سينمات تعرض أفلاماً غربية لا تقل جمالاً عن السينمات الأخرى، برودواي، الرشيد، ريجنت، العراق، البيضاء وسينما الزوراء.

سينما الزوراء

كنت في تلك الأمسية في غاية الأناقة، وأنا انتظر أصحابي مع الحشود المنتظرة قرب سينما الخيام. وكان ذلك اليوم الأول لافتتاح السينما. حضروا بعد وقت قصير وكانوا ثلاثة، هيفاء، منعم، وفتاة ثانية لا أعرفها، فقد كانت مبادرة من هيفاء لجلبها معنا، ولا أعلم السبب، لعلها نوعٌ من التغطية لمشاركتنا في دخول السينما خشية من الرقابة العائلية.

كانت الدهشة ونحن نتلفت في زوايا وأركان وجدران واللوحات في تلك السينما الأنيقة، جعلتنا في عالم غير عوالم السينمات التقليدية فالكراسي القديفة الحمراء المتحركة، وديكور (اللوج) الذي جلسنا فيه، والألوان الزاهية حتى للطنفسة المفروشة في الأرض. الجدران العالية وهي محلاة بجداريتين تغطيانها من الأعلى

للأسفل، فلم يكن هناك شبيه لمثل تلك الرسوم الرومانسية. نقلتنا هذه المشاهد إلى عوالم أخرى قبل أن يبدأ الفيلم، المأخوذ من (أوديسا هوميروس) هيلين ملكة طروادة. كان الإخراج والتصوير والتمثيل في غاية الاتقان من حيث الدقة والفخامة والقدرة على تمثيل ذلك التأريخ الأسطوري للبلدان والفرسان اليونانيون. وكانت هيلين التي خطفها باريس من زوجها في أبهى حلة من حلل الجمال. ومثّلوا حصان طروادة والاستيلاء عليها في منتهى الإبداع والامتاع، وذهب ذلك الحصان اليوناني مذهب المثل، الذي تتناقله الشعوب في أمثالها عن الخدعة الغريبة التي أدت بجيش طروادة وملكها إلى خسارة الحرب نتيجة لتلك الخدعة الغريبة.

كانت متعتنا كبيرة ونحن نشاهد استعراض الفيلم بأحداثه التأريخية، وكنت في غاية الفرح بجلوس هيفاء بجانبي. وكنت استرق النظر إليها، وحين تلتقي نظراتنا أشعر كما تشعر هي الأخرى بالخجل وكأننا ظبطنا في موقف غرامي، لكنها مشاعر الخجل، التي تغمر الشاب العراقي القادم من مدينة محافظة لم تتاح له فرصة التعرف إلى أي فتاة في حياته.

بعد ذلك اليوم المشهود شعرت بان علاقتي بهيفاء بدأت تأخذ مجرى يقود إلى تعميق العلاقة بيننا، وهذا كان بيت القصيد من المحاولات السابقة للتعرف على صديقة أو زميلة أشعر معها بدفئ القرب لإطفاء نار ذلك الحرمان اللاهب الذي يجرفني كلما أرى صبية جميلة، تثير مختلف الرغبات المشروعة وغير المشروعة في كياني.

أخذت زياراتي لكلية الآداب تتكرر. وبانت مرامي من تلك الزيارات، فلم يخفى ذلك عن صديقي منعم، الذي كان يسخر أحياناً من الحجج التي أقدمها لسبب الزيارة، قال لي مرة هذا نوع من أنواع النضال في سبيل الحياة، فلا قيمة لحياتنا بدون الحب. وكنت أحياناً أختلي بهيفاء في نادي الكلية، ونخرج للتمشي في شوارع الوزيرية النظيفة والعريضة، والتي كنت أراها في غاية الجمال. وليس كما هي الآن مخنوقة ومكتفة بتلك العوائق الكونكريتية، التي أحالت الشوارع إلى فرق متوزعة قطعاً متناثرة لا تعلم أولها من آخرها. تلك الشوارع التي كانت تمتد طولاً من بناية المجمع العلمي وحتى باب المعظم وهي تزهو مساءً وصباحاً بالمتنزهين شيباً وشباباً صبايا وصبيان، فما بال مدينتنا مزقها الإرهاب وأحالها أشلاء تبكي وتشكو لخالقها ما حلّ بها.

استمرت علاقتي بهيفاء وبدأت أتعرف على حياتها وعائلتها المحافظة. كما علمت بأنها متزوجة، ولكنها في حالة فرقة مع زوجها، الذي منعها من الدراسة الجامعية. وهذا كان سبب انقطاع العلاقة بينهما، حيث أصرت على مواصلة الدراسة لنيل شهادة عليا، والاستزادة من العلم والمعرفة خلافاً لبقية بنات جيلها ممن يفضلن الجلوس في بيت الزوجية.

صدمت كثيراً بتلك الأخبار غير المتوقعة، فقد أملت كثيراً في إقامة علاقة متينة معها قد تنتهي بالزواج. كانت تروق لي واستمتع بمصاحبتها وأشعر بأنها تبادلني مشاعري ولكن موضوع زواجها

جعلني أفكر وأعيد التفكير وأتعذب من تناقض أفكاري وطموحاتي ومشاريعي، حتى بدأت أعاني من ليالي الأرق، التي أثارت تساؤلات شقيقي الساكن معي، فكنت أخفي علاقتي بتلك الفتاة المحبوبة.

كنت أرى أن لا مستقبل لي من تلك العلاقة، فعملت على الإقلال من زياراتي لكلية الأداب حتى وصلت إلى مرحلة الإنقطاع لفترة طويلة. وفي إحدى تلك الأيام الثقيلة من المعاناة بسبب ما كنت أكتنزه من خيبة في علاقتي مع هيفاء، وجدتها وأنا خارج من الكلية في نهاية الدوام تنتظرني بقرب الباب الخارجي، لأن الكلية البائسة لا تحتوي على نادٍ للطلبة، تفاجأت بوقوفها، ودق قلبي سريعاً لأنني كنا أنوي الابتعاد تدريجياً عنها، سلمت عليها وذهبنا نتمشى في شوارع الوزيرية وفاجأتني بدموعها متسائلة عن سبب القطيعة ، كنت في غاية الحيرة، فهل أخبرها بقراري الابتعاد عنها وهي تعود لإنسان آخر هو زوجها، أم أحاول وأنا أكن لها وداً كبيراً، أن استمر في تلك العلاقة، التي قد تقود إلى مأساة لها ولي وهي المرأة المتزوجة وبنت العائلة المحافظة، تعللت بالمرض في تلك الأيام، ولكن سلوكي وعيوني وارتجاف يديّ فضحاني، فقلت لها بصراحة، هيفاء أنت لست لي وأنا لست لك، أنت إمرأة متزوجة وقد تعودين إلى زوجك في أية ساعة أو يوم من أيام حياتك المقبلة. فاجأتني بأنها مستعدة لطلب الطلاق من زوجها وترتبط بي لأنها أحبتني.

قلت لنفسي أية ورطة أوقعت نفسك فيها يا حكيم، أهذا ما كنت تريده من نزواتك وغزواتك للكليات الأخرى ان ترتبط بفتاة

متزوجة، وتريد الطلاق من زوجها لترتبط بك، وأنت هل تسمح لنفسك بمثل هذا المصير. كنت في تلك الساعة نهباً لمشاعر متناقضة تكاد أن تسحقني وأنا أرى دموعها وهي تحاول إقناعي بعرضها. حاولت مداراتها وفي النهاية صارحتها بأن لا مستقبل لعلاقتنا فكادت تنهار لتلك الصراحة. لكن لابد لي من ذلك رحمة بنفسي وبها. وهكذا انقضت تلك التجربة بخيبة تركت بصمتها في قلبي الرهيف الباحث عن دفئ الحب.

بغداد يا عصمتي الزاهية، بغداد يا عصمتي الحبيبة. كيف تغيرت مرابعك وانطفأ زهوك بعد ذلك التقدم في مختلف مجالات الحياة في الفنون، الغناء، مرابع الفن، شارع (أبو نؤاس) قبلة العراقيين والعرب.

كانت ملاهي بغداد تزهو في أعوام الخمسينات كان روادها من مختلف طبقات المجتمع العراقي. وكانت لكل منها مطربة تتميز بغنائها الجميل، فملهى ليالي الصفا استضافت المغنية المشهورة (نهاوند) ذات الصوت الصافي والمميز بطبقاته المختلفة كما تميزت بجمالها ورشاقتها جامعة للصوت جمال شامي يخطف الأبصار. ومَنْ منا مِن ذلك الجيل يمكن أن ينسى أغنيتها التي لازلت أرددها بعد ستين عاماً لعذوبتها وروعة معانيها :

أين يا ليل صباباتي وأحلامي وعرسي

ذهب السمّار والأحلام والدنيا وكأسي

فتأسيت فلم يرضى فؤادي بالتأسي

نعم يا نهاوند الآن وبعد ستون عاماً ذهب السمّار وانطفأت الأحلام وفرغ الكأس واسودت الدنيا بما فعله ويفعله الحكام وجرائم الإرهابيين.

وكانت ملهى الجواهري التي تقع في الباب الشرقي محط أنظار ونظارة شارع غازي وطبقته دون المتوسطة التي تأنس إلى (أغا زادة لقلق) بنكاته وتمثيلياته المرحة، وراقصاتها من الدرجة الثانية والثالثة.

الفنانة عفيفة اسكندر

أم ملهى عبد الله فكانت جوهرته عفيفة اسكندر تلك المغنية ذات الصوت الرقيق الذي أحبه العراقيون جميعاً بمختلف أغنياتها، لكن أغنية (حركت الروح لمن فاركتهم) أخذت بشفتيها وطيف الحزن الطاغي عليها، شعبية بين جميع فئات الشعب العراقي. وعفيفة اسكندر لم تكن مغنية فحسب، بل كانت شخصية اجتماعية يلتقي في صالونها كبار الشخصيات الأدبية والسياسية، لما تتمتع به من حضور وثقافة وأدب ميزت سنين الخمسينيات وأغنته بوجود مثل هذه الفنانة الكبيرة، وكان إلى جانبها فنانات رائعات زهور حسين، لميعة توفيق، مائدة نزهت بل حتى صديقة الملاّية ذات الصوت الحزين.

وكانت إلى جانب تلك الملاهي مطاعم مشهورة في بغداد ترتادها علية القوم مثل الأوبرج، والأمباسي، اللذان يقدمان برامج غربية

وشرقية من قبل فرق ذات مكانة فنية جيدة، وهل ننسى أو ينسى من تبقى من جيلنا تلك الأصوات الجميلة من قارئي المقامات العظماء أمثال محمد القبانجي، المغني الذي تبوأ مركزاً كبيراً بين الفنانين العرب أمثال محمد عبد الوهاب وام كلثوم، ذلك المغني العبقري الذي فاق جميع المغنين السابقين واللاحقين بجمال صوته وطبقات صوته، وهو يترنم بأغاني مختلفة .

كان القبانجي من كبار الروّاد والمبدعين في مجال المقام العراقي وقد أجاد غناء الموشحات وهو في عمر 12 عاماً. بدأ بالغناء الصوفي والاذكار. وقام بتسجيل المقامات عام 1925. وسجل جميع المقامات. كما طوّر البستة العراقية، وهو أول من جعل الناس تطرب لسماعها، وقد ابتدع لنفسه نوعاً جديداً من المقامات أطلق عليها تسمية مقام (اللامي).

كان ذو قدرة كلامية غنائية كبيرة برزت بوضوح في مؤتمر الموسيقى العربية الذي انعقد في القاهرة عام 1932، الذي لُقّب فيه بمطرب العراق الأول وقد تنافس مع عمالقة الغناء العربي أم كلثوم، محمد عبد الوهاب. ومن مميزات القبانجي أنه موفق في اختيار الشعر الذي يغنيه ويعرف تأثيره على المستمع. وقد غنى لعدد كبير من الشعراء ومنهم عمر بن الفارض، محمد سعيد الحبوبي، كاظم الأزري، الشريف الرضي، ملا عبود الكرخي، عبد الغفار الأخرس، حيدر الحلّي ومعروف الرصافي. ومن أشهر أغانيه :

سودنوني هالنصارى، أصلي وأصلك بغدادي، صلّي وسلّم بالحرم، بابا حسن، ربيتك زغيرون، يا نجية كيفّي، غنيّة يا غنيّة، لا

تظن عيني تنام وأغنيات وطنية عديدة منها المجرشة لعبود الكرخي، أكعد يانايم للظهر، أرض الأبوة والجدود وأنا المغني.

يكفي القبانجي تفرده بالمقام الأول في الغناء في زمن حفل بظهور فطاحل الغناء والمقام منهم رشيد القندرجي، نجم الشيخلي، محمود الخياط، أحمد الموصلي، حسن خيوكة، يوسف عمر، عبد الرحمن خضر، عباس كمبر، جميل الأعظمي، ويوسف حريش، ويكفيه شرفاً أنه صان المقام من محنة الارتزاق والتكسب في زمانه ويعتبر القبانجي نادر المثال في جوانبه التأريخية والفنية، فهو اسم لامع في عالم الغناء العراقي والعربي، فلم يكن نتاج مغن عاش في عصر من العصور الغنائية الموسيقية فحسب، بل وثيقة فنية واضحة للعالم تبيّن للسامع والمتتبع وضع التطور الفني والنضوج في غناء المقام، الذي استلمه من أسلافه بأمانة (1)

وهناك فنان عراقي آخر شغل الدنيا في العراق والعالم العربي، أنه ناظم الغزالي ذو الصوت الملائكي، الذي كما تقول أمهاتنا (غناؤه يفطر القلب). ولابد لي أن أذكر حدثاً مهماً يدل على مكانة هذا الفنان. فبعد إخراجي من الجامعة في أعوام الثمانينات من القرن الماضي توجهت للتدريس في المغرب. كانت المفاجئة التي أذهلتني أنني حيثما توجهت في مدينة الرباط والمدن المغربية الأخرى استمع إلى أغاني ناظم الغزالي، في المقاهي والحوانيت العادية (البسري) كما يسمونها باللهجة المغربية وأرى الشيبة والشباب يطربون لذلك الصوت الجميل بلهجته العراقية، وحين يتعرف عليّ صاحب المحل أو

المقهى بأني قادم من بلد اسمه العراق يقول لي بالحرف الواحد، (أنت من ولاية ناظم الغزالي) فتصوروا أن العراق بحضاراته التأريخية وبماضيه العباسي وحاضره الصدامي وكل ما يملكه من إمكانيات تطابقت مع شخصية ذلك الفنان الكبير ناظم الغزالي.

ومما يؤسف له أن ما يملكه العراق من تركة الفنان الغزالي شريط تلفزيوني تم تسجيله في الكويت لصاحب الصوت الساحر ولا نملك حتى الوقت الحاضر أي تسجيل آخر تلفزيوني لذلك الفنان الكبير .

ناظم الغزالي

ولا يمكنني أن أمرّ مرور الكرام على ذكر فنان كبير وفذ، لعبت منولوجاته دوراً كبيراً في تثقيف ورفع وعي الجماهير العراقية،ألا وهو الفنان المنولوجست(عزيزعلي) كان هذا الفنان يذيع منولوجاته من الإذاعة العراقية. وكانت معالجاته وانتقاداته الاجتماعية أحياناً بالرمز والتلميح والمجاز حين يشير إلى رجال الدولة أو القوى السياسية. ولجوئه إلى هذا الأسلوب كان بسبب تجنبه الأذى الذي قد يلحق به من قبل رجال الدولة. وكان ذلك أحد الأسباب التي جعلت منولوجاته تصلح لكل الأوقات السياسية المتقلبة في العراق.

عزيز علي احد مغنيي المنلوج

وقد كوفئ هذا الفنان الكبير والذي لم يتكرر مثله في العراق بالسجن لاتهامه

باعتناق الماسونية. فكيف يكون عزيز علي ماسونياً وهو المعروف بوطنيته، وأنه صوت الشعب، والمعروف عن الماسونية أنها منظمة سرية ترتبط بالتاج البريطاني وغالباً ما يكون أعضاؤها من النخب الحاكمة، التي تعمل وفقاً للمصالح الأجنبية، فكيف يكون فقير الحال والمُحارب من قبل الحاكمين أنفسهم في درجة واحدة وفي منظمة مشبوهة ؟ ؟.

كان عزيز علي رجلاً ذكياً ومثقفاً، وهو هجّاء من الدرجة الأولى لمن يستحق الهجاء من الحاكمين. وكان فقيراً طيلة مراحل حياته. ومن أعماله الرائعة (الدكتور، صلي على النبي، البستان يا أمة العُرب، عال العال، الفن، يا حسن، شوباش، الشيطان، السفينه، برنادوت، بغداد . وكان فريداً في فنه فلم يتكرر في العراق من يشبهه في ذلك. ولكن السلطة الغاشمة لم تكرّم الفنان الأصيل بل عاقبته بالسجن بتلك التهمة التي أرادت منها تشويه سمعته الوطنية. هذا هو حال الفن والفنانين في العراق !!!.

وكنت استغرب من سلوك المسؤولين العراقيين إزاء الفن والفنانين وعدم تقديرهم ومنحهم المكانة اللائقة بهم. فهذا هو الفنان وسفير العراق في مختلف الدول العربية كاظم الساهر، الذي يلقّب بالقيصر من قبل الفنانين العرب لمكانته الفنية الكبيرة. هذا الفنان عومل بقسوة من قبل عدي صدام حسين، فاضطر إلى الهجرة من العراق ولم يعد حتى الوقت الحاضر. ولعل فيما سأرويه خير دليل على احتقار ومحاربة الفن والفنانين في بلد ملئ بالمنافقين وأدعياء الدين.

كنت مرة ضيفاً لدى أحد أصدقائي في حي الجهاد، وكان يوم الجمعة وفي وقت الخطبة، سمعت الخطيب بصوته الجهوري يزيد من قوته انتشار السماعات الكبيرة الموضوعة في واجهة الجامع لكي يسمعه جميع أهل الحي. كان ذلك الخطيب يُفترض فيه أن يتحدث عن سماحة الإسلام ويحض على الخير ومحاربة الرذيلة، كان يتكلم بعصبية ويشتم الساهر: واصفاً أياه (بكاظم الداعر) مع استخدام كلمات نابية ضده مما يسئ بحق الجامع والدين الإسلامي. فكيف سمح ذلك الشيخ بمهاجمة الفنان الكبير الذي حمل العراق واسم العراق في جميع الدول العربية هذا الفنان الذي كانت تقابله الجماهير العربية بالأحضان والهتافات المدوية باسمه واسم العراق، يوصف بتلك الأوصاف النابية، فكيف لا يهرب هو وغيره من رجال الفن ويعملوا في دول عربية اسلامية بدون أن يُمس بأية تهمة من تلك التهم القاسية التي وصفها خطيب الجامع فناناً كبيراً، والذي رفع وما زال اسم العراق عالياً، وهو السفير الحقيقي لبلدنا وليس السفراء الرسميون الغارقون بالأفك والمصالح المادية وسرقة أموال الشعب العراقي.

عند خروجي من تلك الزيارة نزل وحي الشعر وكنت متأثراً بما قاله ذلك الشيخ الكاذب، فكتبت هذه الأبيات بحق الساهر.

حبي لمن حمل البشائر وأجاد في كل المنابر

وغدى رسول الفن في أوطاننا نعم المثابر

يا كاظم الزفرات في أرجاء عالمك البعيد وأنت ساهر

خوفـاً علـى وطـن الأبـاةْ مـن التمـزق والتنـاثر
آهاتـك الحـرّى تحركهـا عواطف ثـرةٍ فـي وعي شاعر
وتظـل ترقـب مـا يـدور بأرضـنا والقلـب صـابر
أنت السفير لشعبنا في كل فجٍ تسـتجيب لـك المشاعـر
غرّد بكل الحب فالصوت الجميل يطـوف في كـل المحـاور
فمتـى تعـود لـوطن الأحـرار وهو يئن من طعنات غـادر
لتعيد للأطفـال مـا افتقـدوه مـن نغمـات سـاهر

هذا هو العراق وهو يزهو بفنه العظيم وبفنانيه الكبار في تلك السنوات المشقة من خمسينيات القرن الماضي والتي زهت بأصوات وأعمال فنانين كبار ملأوا الدنيا بهجة وجمالاً، وتخطت أعمالهم حدود العراق وعرفهم العالم العربي وافتخر بهم وبفنهم، أين تلك السنوات أمام هذا الظلام الذي يعم بلدي ومدينتي الجميلة عاصمة الحب والفن والسلام، مدينة السبعة ملايين إنسان ولا تجد فيها سينما واحدة، وهي التي ملكت وازدهت بعشرات السينمات العظيمة في تلك السنوات أيام الزمن الجميل، فهاهم أدعياء الدين يحولون السينما الكبيرة إلى مخزن ومكب للنفايات، فهم لا يرضيهم فرح أبناء العراق، الذين أغرقوهم بالبؤس والحزن السرمدي ويلطمون على حاضرهم ولا أمل لهم في المستقبل، فقد سرقوا الفرح والبسمة من وجوههم وحولوهم إلى أشباح تسري في عالم لا يعرفون منه سوى الموت والحزن. أهذا هو العراق المزدهر في تلك السنوات بالفن

والنحت والرسم والموسيقى والغناء، يتحول إلى مأساة تبكي أبناءه على فقدانهم فلذات كبدهم في حروب سوداء أخذت منهم زهرات حياتهم وحولّت بغداد إلى (كيتوات) طائفية متناحرة.

ولا أستطيع أن أمر مرور الكرام على ذكر شارع (أبو نؤاس) وهو مصدر بهجة البغداديين ومكان حسرتهم وأفراحهم. لن أنسى هذا الشارع في السنوات الأخيرة من أربعينات القرن الماضي. حين ذهبنا لزيارة (قصر) أخي الكبير الواقع في منتصفه. كان منظراً هائلاً وعظيماً حين دخلت السيارة في الشارع الجميل. فاجأتنا مئات (الجراديغ) المبثوثة على شاطئ النهر من بدايته وحتى منتهاه. وحين سألت وأنا المندهش من تلك البيوت المصنوعة من القصب الصغيرة الحجم، أجابني عادل زوج أختي بأنها جراديغ اليهود في هذا الشارع، وهم يعمرونها كل صيف ليستمتعوا بجمال ليالي بغداد الساحرة وجمال نهر دجلة بزوارقه وصياديه وهم يتجولون في مياهه الجارية بكل سلاسة وجمال.

نهر دجلة

قلت وما زلت أقول هؤلاء الناس يعرفون معنى الجمال وكيف يستمتعون بحسناته، فما بالنا نحن المسلمون لا نعرف سوى الحزن والبكاء. أليس في هذه الدنيا مجالات للمتعة نعيشها نحن المظلومون والبؤساء ؟

لقد ورثنا نحن الشباب المتطلعون نحو الفن والجمال تلك الجراديغ، بعد أن هجّروا اليهود عنوة من العراق. وقمنا من سنين الخمسينيات أنا وأصدقائي ببناء (جرداغ) مقابل محلة أبو قلام، حيث دار شقيقي الأكبر مقابل ذلك الجرداغ.

كان شارع (أبو نؤاس) مأوى فريداً لعشاق الجمال والفن، وكن يشتعل بالأنوار والغناء من المساء حتى الساعات الأولى من الصباح. حيث الكازينوهات والمطاعم تتلاحم الواحدة جنب الأخرى بألوانها وكراسيها المختلفة الأشكال والغناء العالي لأم كلثوم من بداية الشارع حتى نهايته وترى جميع تلك المحلات مملوءة بالساهرين المستمتعين بأكل السمك المسكوف وبأنواع الشراب المتوفر. كما يحصل أن يجتمع الشباب من الأصدقاء ويبدأ غناءً جماعياً للأغاني المعروفة كأغنية (ربيتك زغيرون حسن) وينضم إلى تلك المجموعة الجالسون في المقهى وينتقل الغناء إلى بقية المحلات، حيث يرحب بذلك شاربوا الخمرة، وهكذا تستمر ليالي (أبو نؤاس) طيلة فصل الصيف المعتدل في ليالي بغداد الساحرة، حتى دخل العنف والقتل في عهد صدام والعهد الجديد، وانتهت تلك الليالي وتحول نور (أبو نؤاس) إلى ظلام دامس يحرق قلوبنا ويحزن أنفسنا نحن بقايا ذلك الجيل، الذي استمتع وعاش أحلى سنين الخمسينات في أحضان شارعنا الخالد.

كنا مجموعة من الأصدقاء، الذين تعرفت عليهم حال وصولي بغداد عن طريق صديق بغدادي سابق. وكانت التشكيلة ثلاث مسيحيين (ألبير، جوزيف، سليم بكو) وكردي برزنجي تميز بذكائه

وقدراته الغنائية والطربية وتنظيم ليالي السهر في ذلك الجرداغ، الذي كان أفضل مأوى لنا في صيف بغداد، وكنا نمارس فيه الألعاب الرياضية، وأمنت لمجموعتنا الأثقال المهمة لتلك اللعبة، كما اشترينا زورقاً صغيراً كان مجالاً مهماً لسهراتنا وسط نهر دجلة في الليالي المقمرة، ونحن في وسط الزورق العائم بانسيابية متوجهاً نحو الباب الشرقي. وكنت أقود الزورق، تصاحبنا كؤوس البيرة الباردة ويطرب لياليا، صديقي المرحوم صاحب، القادم من مدينتي النجف الأشرف، صاحب ذو الحنجرة الذهبية وكان يتغنى بأعذب المقامات والأغاني الشعبية ونحن نرافقه (ككورس) منظم، فقد اعتدنا على أداء تلك الأغاني، وأحببنا أغانينا الشعبية، ومقاماتنا الطربية الجميلة .

عشنا أياماً وليالي في سنين بغداد الجميلة، ولم يعكر صفونا أي معكّر، بل كنا مجموعة من الأحباب، جمعتنا مشاعر وأفكار واحدة، وكنا نقضي لياليا موزعة بين الجرداغ وسينمات بغداد التي تعرض أحدث الأفلام.

هكذا انصرّمت تلك الليالي والشهور الساحرة ونحن في غاية البهجة والفرح. حتى دقت ساعة الفرقة، حين حدثت ثورة تموز وما تلاها من أحداث فتحولت جراديغ المحبة والفرح إلى محلات للسياسيين الجدد والقدامى. وأخذت الأحداث تتطور أحياناً إلى حوادث عنف نطلق فيها رصاصات الغدر والحقد على بعضنا البعض. ولا أدري كيف تحولت ليالي الأنس والطرب، إلى ليالي

العنف والغدر والحقد نحن من كان لا يعرف لذلك سبيلاً، بل كنا منشغلين ولاهين في لياليا الحلوة المليئة بالفرح وبسكف السمك الحي، وتلك كانت من أمتع الليالي.

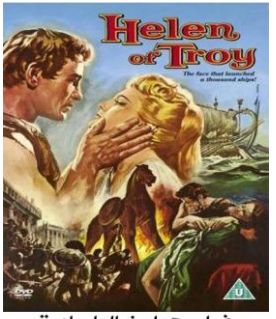

فيلم هيلين الطروادية

فيلم "سبارتاكو"

فيلم "ذهب مع الريح"

4

ما أحلى الخريف في مدينتي الحبيبة بغداد. ففيه يحلو الجو وتنساب النسائم العذبة تلطف حرارة الجو القاسي بعد أيام طويلة من صيف محرق ففيه تتفتح الورود وخصوصاً الروز وتبقى بألوانها الجميلة تحلي حياة البغداديين فترة ليست بالقصيرة بعكس الربيع الحار والمترب، الذي يقضي سريعاً على الورود والأزهار، تذوي منتكسة لا تحب الحرارة كساكني بغداد.

في خريف 1955، وفي الشهر العاشر، تشرين الأول، وطأت قدماي أرض كلية الحقوق لبدء الموسم الدراسي السنوي المعتاد. كانت رؤيتي للكلية مخيبة للآمال لأسباب كثيرة سوف ترد في الصفحات التالية. من كثرة ما عانيت في تلك الكلية.

كنت مضطراً وبدون إرادتي وبعيداً عن رغبتي في دخول كلية الحقوق، حيث كان طموحي أن أكمل دراستي في لندن، ولكن ظروف غير طبيعية حرمتني من تنفيذ تلك الأمنية، فالدراسة في بلد الإنكليز والتمتع في لندن ومباهجها ونسائها وما تملكه من وسائل الحضارة دغدغت مخيلتي لسنين طويلة، هي سنين الصبا المراهقة.

دخلت الكلية الواقعة جنب الجسر الحديدي الذي يمر عليه القطار عدة مرات هازاً صفوفنا ومقرقعاً في أجوائنا، وأحياناً كنا نفرح بمروره لتسببه بقطع المحاظرة المملة التي يمليها علينا أستاذ ممل هو الآخر.

جسر الصرافية الحديدي في بغداد

كانت الكلية عبارة عن فضاءات مستطيلة، تتكون من طابقين أرضي وطابق علوي، وكانت الفضاءات هما الجسم الرئيسي للكلية، ففي الطابق الأول ممر طويل بعرض ثلاثة أمتار، تقع على جانبه الأيسر صفوف الكلية الأولى والثانية وعلى الجانب الأيمن غرف الأساتذة وغرفة البنات، التي كانت مقراً سرياً لهن، تتجمع الهاربات فيها هرباً من متابعاتنا ونظراتنا.

وفي الطابق العلوي يقع الصف الثالث والرابع. هذه هي المكونات الهزيلة مع بعض الغرف للموظفين لكلية الحقوق، ذات السمعة الكبيرة في العراق، والتي خرجت العشرات من أبناء البرجوازية الكبيرة من حكام العراق السرمديين الذين كان ينظر إليهم فقراء المدن بحسرة وشوق لايعلمون مدى بؤس الحياة فيها وبؤس مناهجها الثقيلة. وكنا في الفرص بين الدروس وهي عشرة دقائق نخرج إلى الشارع المحاذي للجسر الحديدي، نتمشى مرغمين لعدم توفر نادي للطلبة، أو ساحة أو حديقة كبيرة نتنزه فيها. ولم يكن هنالك فرق كبير بين دراستنا في الثانوية وجفافها ودراستنا في كلية الحقوق، فهي امتداد لتلك الحياة السقيمة، الخالية من كل بهجة.

دخلت الصف حين قرع جرس الدخول وكان عدد الطلاب حوالي المئة طالب. كان ترتيب الكراسي على نصف قوس يحيط

بمنصة الأستاذ العالية، ويكبر نصف القوس متحلقاً بتلك الطريقة الكلاسيكية لكي يكون الطلاب قريبين قدر الإمكان من الأستاذ المحاضر. وكانت الرحلات، أو الكراسي الخشبية عير المريحة مرقمة، لكي يعرف المراقب الغيابات من أرقام الطلبة الغائبين عن المحاضرات، فقد كان نظام الغياب مقدراً له ضبط دوام الطلبة. وكان المسموح به حوالي 10 ٪ إلى 20 ٪ من نسبة الدوام. وإلا فالطالب يعرض نفسه للفصل بسبب الغياب. وكانت تلك أقسى عقوبة يتعرض لها الطالب بالكلية. وهذا النظام المعيب يختلف عن النظام الأوربي، الذي يعتمد الحضور الاختياري لكن من يحضر هناك أكثر بكثير من طلبتنا المرغمين على الجلوس على تلك الرحلات والاستماع إلى المحاضرات المملة، التي تعتمد على مبدأ التلقي فقط. بدون الأساليب التربوية، التي تقسم الطلبة إلى مجاميع يشرف عليها أحد الأستاتذة، تجتمع مرات عديدة في الشهر لمناقشة مختلف المواضيع المنهجية والتربوية ومعرفة مستوى فائدة الطلاب من تلك المحاضرات. علماً بأن الدارسين من الجنسين، في الوقت الذي كان فيه عدد الطالبات في صفنا خمسة فقط من مجموع مئة طالب. وكنّ يهربن سريعاً للاختباء في غرفة البنات ولا يختلطن بالطلبة. ولم تكن بينهن سوى طالبة واحدة تتمتع ببعض الجمال، وكانت محط أنظار جميع الطلبة ولكن لم تنتهي السنة الدراسية إلا وتزوجت تلك الطالبة (م) حارمة العديد من أحلامهم في الزواج منها بعد التخرج وكنت أنا في عداد أولئك الطلبة قبل أن أتعرف على

العديد من الطالبات في الكليات الأخرى التي تتجاوز عدد الطالبات فيها عدد الطلاب الذكور.

جلست في المحاضرة الأولى خصوصاً لم نكن نعرف بعضنا البعض الآخر ولا نعلم ما تخبئه لنا الأيام والسنين الأربع.

كان يجلس إلى جانبي الأيسر شخص يميل إلى الشقرة بملامح جميلة، وكان أنيقاً وباسماً طيلة الوقت، قدمت نفسي له اتضح أن اسمه يطابق اسمي. ولم يتوفر لي الوقت للتعرف على الطالب الذي يجلس على يميني، وأجلت ذلك إلى الخروج من الصف، وما أتعس ذلك الخروج كنت أتصوره كخروج الخرفان من مضاجعها وهي تتزاحم لتتنفس الهواء الطلق، لضيق الباب الذي ندخل ونخرج منه.

عرفت الشاب الذي يجلس إلى يميني وكان اسمه (تحسين برواري) وعرفت أنه من أخواننا الكرد. وكانت تلك هي المرة الأولى التي أعرف فيها كردياً فلم يكن بيننا في أي وقت من الأوقات السابقة في حياتنا في النجف أي كردي سوى ما نسمعه ونقرأه عن القومية الثانية التي تعيش في شمال العراق.

علمت أن (حكمت صادق) من سكنة الأعظمية، حيث اكتنز أجمل الذكريات عن الأعظمية في أيام صباي وحبي للصبايا الجميلات في شارع طه وغيره من الأماكن الجميلة.

كانت علاقتي الحميمية، التي بدأت منذ اليوم الأول مع صديقي الكردي تحسين والتي استمرت سنوات الكلية وما بعدها. وكانت

علاقتنا ودية وسياسية تعمدت بالنضال ضد الحكم الرجعي السائد في بغداد آنذاك.

فتحت معرفتي بتحسين آفاق عجيبة لم أكن أفكر في معرفتها والخوض في متاهاتها وتعرجاتها. تعرفت من خلاله بعد ذلك على الكثير من الأخوان الكرد المتواجدين معنا وفي الكليات الأخرى، فقد عرفني على طلاب الصف الأول، جميل دزه ي، محمد دزه ي، كمال وآخرون لم أعد أتذكر أسمائهم بعد خمسين عاماً من تخرجنا.

كما وعرفت من خلاله العديد من الكرد داخل الكلية وخارجها وكان من أبرزهم، رشدي، بابا طاهر، كامران قره داغي، نوري الطالباني، وفي الكليات الأخرى كمال مظهر، نعمان بابان، عز الدين رسول في كلية دار المعلمين العالية، وفاضل فرج في الكلية الطبية.

أخذت معرفتي تتوسع بأصدقائي الجدد من الكرد. كما بدأت معلوماتي تزداد مع الأيام عن هذه القومية التي تشاركنا وطننا العراق، لم أكن أعرف من الكرد سوى معلومات قليلة ومضللة. ففي بدايات تعرفنا على السياسة وكنت اعمل وقتها مع الأخوان القوميين. كانت الجماعة يحشون أدمغتنا بمعلومات غريبة عن منتسبي القومية الكردية، يصورونهم بصورة عصابات وقطاع طرق في الشمال، ليس لديهم من عمل سوى السلب والنهب والاعتداء على المسالمين من السكان ومحاربة السلطة الشرعية في بغداد. وكانوا يصفونهم بأوصاف غير لائقة وبعيدة عن الذوق والأدب، خصوصاً زعيمهم الكبير ملا مصطفى البرزاني. ولا زلت أذكر تلك الكلمات

التي وصفوا بها تلك القومية الشريفة وزعيمها الكبير(أغا الأكراد) وهذا يدل على حقد وشوفينية كريهة زرعها النظام الرجعي والديكتاتوري، الذي عُرف بقمعه لتطلعات تلك القومية المناضلة وزعمائها المجاهدين لنيل حقوقهم الشرعية.

وأنا أتحدث عن معرفتي بالكرد وطول هذه المعرفة والنضال المشترك الذي عشناه سوية خلال سنين الخمسينيات وما تلاه. لابد لي أن أذكر مقابلة مع أحد الأكراد في دار صديقي الكردي الدكتور كمال مظهر (حسين الجاف) وكان الرجل يتبجح بمدح زعيم العراق آنذاك، الذي يقود النضال القومي العربي، كما ادّعى الموما إليه، وكيف تتطابق مبادئ النضال القومي العربي وشعاراته مع مبادئ القوميين الكرد. وهذا أفضل ما يجمع العرب بالكرد. لم أستطع السيطرة على عواطفي وأفكاري وأنا أسمع تلك الكلمات الكاذبة والمضللة، أجبته بما أعرفه عن التعصب القومي العربي إزاء الأكراد وذكرت له الأمثولة السابقة عن تفكير القوميين العرب (بأخوانهم الكرد). أصفر وجه الرجل وتغيرت ملامحه ولم يستطع أن يواصل الجلسة، وكان فرح صديقي كمال مظهر كبيراً، ولكني خشيت أن يذهب ذلك الرجل ويخبر السلطات عما دار في تلك الجلسة. لأن الموما إليه كان مستعرباً ومندفعاً في ولائه للنظام السابق.

مع مرور الأيام كانت علاقتي تتوثق بصديقي تحسين برواري، وبقية الأصدقاء الكرد داخل الكلية وخارجها في الكليات الأخرى. وبدأت أتعرف على ما يعانيه الشعب الكردي من آلام بسبب

الاضطهاد القاسي من قبل الحكومات التي يتواجد على أراضيها، حكومات تركيا، إيران، سورية والعراق.

حدثني صديقي كيف ان هذا الشعب الذي يتجاوز تعداده العشرين مليون في ذلك الزمن، العقد الثالث من القرن العشرين لم يستطع أن يحظى بتكوين دولة مستقلة بالرغم من وجود وعود الحلفاء للكرد في مؤتمر فرساي بمنحهم الحق في تكوين دولتهم المستقلة، ولكن سرعان ما خنثوا بوعودهم بعد مؤتمر فرساي، حين استولى كمال أتاتورك على الحكم في تركيا. وأنكروا وعودهم للشعب المتطلع نحو الحرية، بل أنهم أيدوا تقسيم الكرد بين دول المنطقة المتجاورة، العراق، سوريا، إيران، تركيا، وما زال هذا التقسيم سارياً حتى الوقت الحاضر. بالرغم مما حصل من تطور كبير في نضال الشعوب الأفريقية والأسيوية وحصولها على استقلالها بالاستناد إلى حق تقرير المصير وإعلان إلغاء الاستعمار من قبل الأمم المتحدة.

أثارني كثيراً اضطهاد الشعب الجار والصديق فعبرت عن عواطفي في إحدى قصائدي عن كردستان وتقسيمها بين دول لم تتعاطف مع سكانها وأهلها بل لعلها فرحت بموقف الاستعماريين بتقسيم القومية الكبيرة وسكانها بين حكومات بعيدة عن الحق والعدل وتطبيق قواعد القانون الدولي.

قلت في وصف هذا الموقف المغالي في عدائه للكرد بقصيدة عنوانها كردستان:

من عهد فرساي ما انفكت تلاحقها

أطماعُ قومٍ أباحوا أرضها سلبا

تقاسموها جزيئات مبعثرةٍ

لم يبق بينهمُ أفّاك ما نهبا

مقطوعة النهد والأطراف شامخةٌ

مرفوعة الرأس يعلو هامتها السحبا

لم نكن نعلم نحن أبناء العراق أن الكرد قومية متميزة وهم يمثلون شعباً متكامل الأركان لتكوين دولتهم الخاصة أو على الأقل منحهم الحكم الذاتي ليتعلموا بلغتهم ويديروا شؤونهم بشكل مستقل.

حدثني صديقي تحسين عن محاولات الكرد لتكوين كيان منفصل في العراق وكانت أول محاولة كما عرفت، قام بها الشيخ محمود الحفيد، حين أعلن عن تكوين الحكومة الكردية بقيادته في السليمانية. لكن تلك المحاولة قمعت بالقوة وبالطائرات الإنكليزية التي كانت تحتل قواعد مهمة في العراق. كما كان العراق خاضعاً لسيطرة ونفوذ بريطانيا العظمى. واعتقل وبعدها نفي الحفيد وقادة الحركة إلى المناطق الوسطى من العراق وتم إبعادهم عن أبناء قوميتهم.

كما وعرفت بالانتفاضات المتكررة للكرد بقيادة الزعيم الكبير الملا مصطفى البرزاني، وكيف قمعت تلك الانتفاضات بالقوة وقتل

الكثير من المشتركين فيها من أبناء تلك القومية المطالبة بحقوقها المشروعة.

الملا مصطفى البارزاني

كما حدثني عن جمهورية (مهاباد) بقيادة القاضي محمد في إيران بعد الحرب العالمية الثانية، حينما كانت القوات السوفيتية تحتل جزءاً من إيران. وكيف حالت صفقة الخيانة بين السوفيت والإنكليز بالإطاحة بحكومة قاضي محمد من قبل قوات الشاه، وإعدام قادتها أمام جماهير الكرد المنتفضة ضد الظلم والطغيان.

وفي إحدى قصائدي العديدة المكرسة لمساندة ودعم الشعب الكردي أقول في قصيدة عنوانها العنقاء :

وصحا بعد قرن وقاما ... وطن الكرد عاش دهراً مضاما

وطنٌ كلكلَتْ عليه رواسي ... هبّ من رقدةٍ عزوماً هماما

وطن الكرد قسمته عروش ... فألام يبقى مقسماً وملاما

ما استطاع الطغاة إخماد جذوةِ ... أشعلتها دماء الكرد النشامى

واستمرت قوافل الشهداء من ... عهد الطاغية (الضحاك) مواكباً تترامى

وأفاق طائر العنقاء وقاما ... فأنتضى من اللهب قائداً مقدما

هلّلت جبال كردستان نشوى بعناق زهر الشيح وورد الخزامى

أنه (برزان) ثائراً وزعيماً حلّ في دربها لا يهاب الحماما

والتقينا مجموعة كبيرة من العرب القادمين من المحافظات الجنوبية والكرد، ممن عانوا من الاضطهاد والغبن الواقع عليهم من قبل الحكومات الرجعية والعميلة للإنكليز. وكانت عزيمتنا من النضال تتصلب مع نمو وعينا بعمق الحيف الواقع علينا. وكنا نعمل معاً ليلاً ونهاراً من أجل الإطاحة بالحكومة القائمة.

كان أغلب الكرد في كليتنا (الحقوق) والكليات الأخرى من اليساريين والديمقراطيين، حيث لم تكن الأحزاب الكردية القومية موجودة في تلك الأيام. فالتقينا نحن ممثلي اليسار من مناطق الإقطاع في جنوب العراق مع اليساريين الكرد، وكنا نمثل جبهة متراصة متفاهمة سقتها سنين الإضطهاد بالعزم والقوة والصلابة في وجه المضطهدين من الحكام الرجعيين.

بينت بشكل مختصر موقف اليمين القومي العربي من القضية الكردية. ولا بد لي من استكمال الصورة أن أوضح بشكل مختصر موقف اليسار من هذه القضية. وكما هو معروف فاليسار في العراق كان آنذاك – أي في سنين الخمسينيات – ممثلاً في الحزب الشيوعي والمنظمات الجماهيرية التي يقودها الحزب، اتحاد الطلبة، الشبيبة الديمقراطية، اتحاد العمال، حركة السلم وأصدقاء الحزب.

كان موقف الحزب المبدئي إزاء قضية الشعب الكردي نابعاً من فلسفته المستنبطة من موقف وتوجهات وكتابات (لينين) المأخوذة من المبادئ المعلنة بعد ثورة اكتوبر البلشفية، والتي تنطلق من مبدأ تقرير

المصير لجميع الشعوب الخاضعة لاضطهاد القوى الاستعمارية العالمية.

لينين يخطب في جماهير ثورة أكتوبر

وذلك الموقف المبدئي يختلف عن سياسة الحزب الشيوعي التي تتبناها في فترات مختلفة إزاء الكرد والقضية الكردية التي كانت تتراوح بين الدعم القوي والمحاربة العدوانية كما سأوضحه لاحقاً.

كنت أحد المنتمين إلى صفوف اليسار في سنوات الكلية وذلك امتداداً للنضال الذي بدأته في صفوف اتحاد الطلبة في النجف. ولم أكن عضواً خلال سنين الكلية في الحزب الشيوعي ومن خلال ما أطلعت عليه من معانات الكرد وما تعرضوا له من اضطهاد وسجن وتقتيل، اقتنعت بشكل كامل بأحقية القوم بتقرير مصيرهم، المبدأ الذي تبناه اليسار العراقي والسوفيت وبقية شعوب العالم المضطهدة. كما نصت أحكام ميثاق الأمم المتحدة على تبني مبدأ تقرير المصير للشعوب المستعمرة كافة. وليس اعتباطاً ما كتبته في أطروحتي لنيل شهادة الدكتوراه عن حق العرب في تقرير مصيرهم والنضال العربي المشروع من أجل الحرية والاستقلال.

كنت ومنذ البدايات أصرح وأعمل في سبيل أن ينال أخواني الكرد حقوقهم المشروعة وفي مقدمتها حق تقرير المصير ونيل الاستقلال شأنهم في ذلك شأن العشرات من الشعوب الأسيوية والأفريقية التي نالت استقلالها وكونت دولها القومية.

وكان أول موقف لي في هذا التوجه الذي تبنيته، ومازلت حتى الوقت الحاضر، أن ألقيت كلمتي الأولى في الاحتفال الذي أقامه أصدقائي الأكراد بمناسبة أعياد نوروز عام 1956، الذي عقد في (سلمان باك). ولن أنسى الحماس الذي تملكني وأنا ألقي كلمتي الأولى في حياتي السياسية، وكنت لم أتجاوز العشرين عاماً. كان أهم ما قلته آنذاك، الإعلان باسم اتحاد الطلبة العراقي مبدأ حق تقرير المصير للكرد العراقيين خاصة ولبقية الأكراد في الأقطار المجاورة، تركيا، إيران، سورية. قوبلت الكلمة وذلك الإعلان بتصفيق حاد من المحتفلين الذين لم يتوقعوا أن يعلن عربيٌ وبتلك الصراحة وأمام الجماهير موقفاً لم يُعرف عن الطلبة وغيرهم من الشباب إزاء الكرد.

ومنذ ذلك الموقف الذي اتخذته، والذي لاقى ترحيباً واستحساناً من اليساريين العرب ومن أصدقائي الكرد، استمرت علاقتي بالكرد والقضية الكردية أكثر من خمسين عاماً حتى الوقت الحاضر، وبالرغم مما أراه من ممارسات خاطئة ومصالح ذاتية لا علاقة لها بما تبنيته من مبادئ في نضالي مع الكرد طيلة تلك السنوات.

كان الحزب الشيوعي العراقي يتبنى نضال الكرد في سبيل حقوقهم وفي مقدمتها حق تقرير المصير. شأنه في ذلك شأن جميع

الشيوعيين في العالم. وكان ذلك موقف الاتحاد السوفيتي الرسمي. خلافاً لما وقفه هذا البلد وبقيادة الحزب الشيوعي نفسه في بعض الأحيان ضد تطلعات الشعوب المضطهدة نحو الاستقلال ومن ضمنها الشعب الفلسطيني، حين أعلن تأييده الرسمي من الأمم المتحدة لقيام إسرائيل، وتبعه في ذلك الحزب الشيوعي العراقي، هذا الموقف الذي أحدث اضطراباً وخللاً في مسيرته النضالية في العراق، مما حدا بالعديد من المثقفين واليساريين العراقيين إلى معارضة ذلك الموقف الخاطئ وكنت واحداً من أولئك المعارضين لموقف الحزب الشيوعي. لكنني كنت نفراً ضائعاً في مسيرة الصفوف الجماهيرية. ولن أنسى موقف المفكر الكبير الأستاذ إبراهيم كبة الذي عارض تلك السياسة الخاطئة وانفصل عن مسيرة الحزب الشيوعي. وغيره من المثقفين الديمقراطيين واليساريين كما كان موقف القوميين العرب موقفاً حاداً وعدوانياً ضد الحزب الشيوعي العراقي، حيث نعتوه بالعمالة للصهيونية، والعمالة للحزب الشيوعي السوفيتي. وكان لذلك الموقف غير المبدئي من قبل الشيوعيين أثره المدمّر على وحدة النضال العراقي، التي تمثلت بوثبة كانون عام 1948، علماً بأن الشيوعيين كانوا المبادرين الأوائل للنضال ضد الصهيونية بتكوينهم، (عصبة النضال ضد الصهيونية) وهذا هو الموقف المبدئي، الذي كان يجب أن يطبق في سياسة الحزب بعيداً عن نفوذ الحزب السوفيتي، الذي تسبب بمشاكل كثيرة للحزب الشيوعي العراقي وللحركة النضالية في العراق.

كان الحزب الشيوعي العراقي نصيراً قوياً لنضال الشعب الكردي. وشجع قيام أحزاب كردية ديمقراطية تقود نضال الأكراد في سبيل تلبية حقوقهم المشروعة.

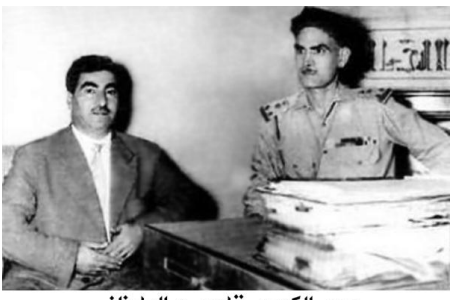
عبد الكريم قاسم و البارزاني

لم يستمر ذلك الموقف طويلاً فقد حصلت انتكاسات غريبة عن سياسة الحزب المبدئية إزاء الأقوام المناضلة بالرغم من أن الحزب كان يقاد من جانب عناصر كردية لفترات عديدة في تأريخه، كبهاء الدين نوري، جمال الحيدري، وآخرهم الذي طال وجوده بقيادته للحزب سنين طوال، والذي حصلت الأخطاء الكبيرة خلال قيادته.

لم أنسى ولن ينسى العراقيون موقف الحزب من الحرب التي نشبت في عام 1961 بكردستان ضد ثورة الملا مصطفى البارزاني، والذي عاد لتوه من الاتحاد السوفيتي، وكان حليفاً قوياً للزعيم عبد الكريم قاسم. لكن خلافاً دب بين الزعيمين، ويقال أن ايران كانت تشجع ذلك الخلاف لرغبتها في إبقاء العراق مضطرباً وضعيفاً. لكن حسب إعتقادي أن الأخطاء أرتكبت من كلا الطرفين اللذان لم يعمدا للحوار لفض النزاع بينهما فلجآ لاستخدام السلاح.

سيّر الحزب الشيوعي في ذلك العام مظاهرات كبيرة لإحلال السلم في كردستان لتقديره أن تلك الحرب قد تتسبب في خسارة

الجمهورية الوليدة، التي كانت عرضة للتآمر من قبل الدول الإمبريالية، بالتعاون مع المرجعية وممثليها في العراق. وقد تم إلقاء القبض وسجن الآلاف من الشيوعيين وأنصارهم المشاركين في تلك التظاهرات، وتم إعدام العديد منهم بعد إنقلاب 8 شباط عام 1963.

كان ذلك الموقف يدل على مبدئية حقيقية في سياسية الحزب الشيوعي، خلافاً لما اتخذته القيادة في سبعينيات القرن الماضي من المشاركة أولاً مع حزب البعث وثانياً في الاشتراك مع القوات العراقية من قبل الشيوعيين في مقاتلة الكرد الثائرين في جبال كردستان.

كانت قيادة الحزب اليمينية والذليلة قد عقدت اتفاقاً مع البعث في تكوين جبهة وطنية، متناسية ما حلّ بالحزب من مآسي عام 1963، وما حل به وبرفاقه من قتل وإعدام وتعذيب. ووجود آلاف الشيوعيين في السجون خلال تلك الفترة التي سبقت عقد ميثاق الجبهة الوطنية. ولكن لم يكن الحزب كما في مناسبات أخرى يملك زمام أمره، بل كان مسيراً من قبل (الشقيق الأكبر) طليعة الأحزاب الشيوعية، الحزب الشيوعي السوفيتي. فلم يتخذ الحزب قراراته في مفاصل مهمة من نضال الشعب العراقي وفق المصلحة الوطنية. وكان بإمكانه استلام السلطة عام 1959، عندما تعرض الزعيم عبد الكريم قاسم لمحاولة اغتيال حيث سيطر الشيوعيون على مراكز الدفاع العسكرية وعلى الشارع البغدادي. إلا ان السوفيت كان لهم موقف آخر، تمثل بمنع استلام السلطة من قبل الشيوعيين. وكانت العديد من المواقف السابقة واللاحقة الخاطئة التي وقفها الحزب

الشيوعي العراقي بضغط ودفع من قبل السوفيت. لكأن الغرباء أعرف بوضع العراق من أبنائه.

قاسم في المشفى بعد محاولة اغتياله

وهنا وقف الحزب بالتعاون مع البعث بدفع وإيحاء من (أشقائه) السوفيت ليعقد جبهة مع من وجه ضربة قاصمة للحزب عام 1963 وأعدم قياداته، وسجن الآلاف من رفاقه.

كما ان البعثيين لم يوقفوا سياسة الاغتيال والتسقيط في صفوف الحزب أثناء المفاوضات لعقد ميثاق الجبهة لإضعاف الحزب، الذي كان ضعيفاً ليس بصفوفه، بل بسياسته اليمينية الخاطئة، الموحى بها من (الأخ الأكبر) الحزب السوفيتي. وكانت تلك أهم أخطائه، التي أودت بشعبيته، وخروج آلاف الشيوعيين من صفوفه واستمر بأخطائه. حتى وصل الأمر إلى الاشتراك بمجلس الحكم بعد الاحتلال الأمريكي وبقيادة (بول بريمر).

كانت هذه السياسة هي النقيضة للمواقف المبدئية التي اتخذها الحزب سابقاً إزاء نضال الشعب الكردي في خمسينيات وستينيات القرن الماضي. والتي تمثلت بالتعاون والكفاح المشترك ضد الرجعية والاقطاع والحكومات العميلة وفي دعم حقوق الشعب الكردي في الحصول على الحكم الذاتي وحقوقه الأخرى.

وقد أودت سياسة الحزب اليمينية الخاطئة إلى ضعف صفوفه إلى درجة كبيرة، لم يستطع أن يوصل نائباً واحداً في الانتخابات (الديمقراطية) التي جرت في الأعوام الأخيرة إلى البرلمان، علماً بأن الحزب كان يملك في خمسينيات القرن الماضي وبعد ثورة تموز جماهير واسعة، دلّت عليها المظاهرات المليونية التي كان يقودها أيام الحكم الجمهوري في عهد عبد الكريم قاسم.

كانت الأيام الأولى لدخولي الكلية عام 1955 هي بداية علاقتي مع الأصدقاء الكرد، وامتدت العلاقة وتطورت خلال أكثر من خمسين عاماً حتى الوقت الحاضر. وكان الكرد أصدقائي القريبين خلال فترات حياتي المختلفة.

كانت علاقتي بهم شخصية وسياسية. ولا أخفي سراً إذا قلت بأن ما يملكه الكرد من مزايا أخلاقية تتمثل بالحميمية والوفاء والإخلاص في علاقاتهم مع الأصدقاء حتى درجة التضحية في سبيل الصديق، وأن هذا السلوك يكاد ان يكون مفقوداً لدى أبناء المدن، فالكرد جاؤوا من مناطق ريفية ومدن معزولة عن مراكز التحضر، التي تعج بالهجين من السكان المدنيين والريفيين، الذين اختلطوا فيما بينهم فنتج لدينا إنساناً مشوهاً هجيناً لا يفكر بمبادئ السلوك الحسن والأخلاق، وإنما حياته تصرخ (إجمع ما شئت من المال، الما عندو فلس ما يسوة فلس) هذه هي القاعدة، التي ينطلق منها أبناء المدن. ولا أخفي إذا قلت أن العدوى وصلت المدن الكردية الكبيرة في الوقت الحاضر، وبقية الأطراف والأرياف مازالت محافظة على القيم والتقاليد والأخلاق الحميدة.

كنت مع الكرد نتعاون في المجال السياسي للإطاحة بحكومات العهد الملكي، التي كانت الخصم الأول لنا نحن الطلاب، الذين يمثلون طليعة الانتفاضة ضد الحكام الرجعيين وكان الكرد أغلبهم من العناصر اليسارية والبعض القليل منهم من القوميين. وكان عملنا يتمثل في اللقاءات المستمرة في الكلية وخارج الكلية لتنسيق النضال المشترك ضد الرجعيين، وكنا نضع الخطط لكسب الأصدقاء ونقوم بتوزيع المناشير الخاصة باتحاد الطلبة العراقي والبعض من يوزع جريدة الحزب الشيوعي.

كان نوروز فرصة مهمة وثمينة لتجمعنا نحن الطلبة العرب والكرد للاحتفال السياسي بهذه المناسبة وكان أول تجمع لنا في 21 آذار 1956 في منتجع سلمان باك، على ضفاف نهر دجلة وسط بساتين النخيل والفواكه وساعة إنطلاق ثورة القداح، الذي يعطر الأجواء الشبابية ويمنحنا قوة وعزيمة.

اجتمعنا في ذلك اليوم عرباً وكرداً وكلنا إندفاع من أجل إحياء تلك الذكرى الوطنية والسياسية للأخوة الكرد، كما كانوا يقولون بأنه اليوم المعروف لثورة (كاوا) الحداد ضد الطاغية (الضحاك). وكان التجمع كبير من مختلف الكليات، واقتصر على الطلبة اليساريين. بدأ الاحتفال بإلقاء كلمات سياسية، وكانت إحدى هذه الكلمات كلمة ألقيتها باسم اتحاد الطلبة العراقي، ولن أنسى العبارات التي استدعت التصفيق الحاد من قبل المجتمعين، حين تلفظت بحق تقرير المصير للكرد وما يتضمن ذلك من حقهم في تكوين دولتهم المستقلة، شأنهم في ذلك شأن العديد من الشعوب المستعمرة.

وبعد الانتهاء من الكلمات السياسية، قام الجمع بمصاحبة الطبل والمزمار بأداء الدبكات الكردية، وكنت لأول مرة أشارك فيها، وقد علموني أداء الخطوات الصحيحة، واستمر الجمع في الرقص والغناء بعد أداء نشيد نوروز.

(آمروجى سال تازه يه نوروزا هاتوا – اليوم نستقبل نوروز رأس السنة الجديدة)

الدبكة الكوردية

وكان ذلك اليوم تأريخياً في حياتي. فقد سجل عملاء التحقيقات الجنائية، الذين صاحبوا الجمع دون أن نعلم مسجلين كل ما دار فيه ومن ضمنها كلمتي. علمت بذلك حين أوقفوني في التحقيقات الجنائية في ربيع 1958، وكانت إحدى صوري بالملابس الكردية التي استعرتها من صديقي تحسين في تلك المناسبة.

واصلنا العمل بالتعاون في النشاطات المختلفة والمشتركة بيننا، وفي عام 1957 نظمنا سفرة أخرى إلى سدة الهندية اشتركت فيها العديد من الكليات وكان الجمع كبيراً جداً وتنوعت النشاطات السياسية والفنية في ذلك التجمع الأول للطلاب الكرد والعرب، واستمر الحال في السنوات الأخرى حتى تخرجي من كلية الحقوق عام 1959.

واستمرت علاقتي بالأصدقاء الكرد حتى الوقت الحاضر، بل كبرت وتطورت وزادت وشائج المحبة بيننا. وكنا في سنين

الخمسينيات نلتقي صباحاً ومساءاً في بعض الأحيان. ففي الصباح كنا نمارس العمل السياسي بين الطلبة، وفي المساء تنادينا المنتديات وكازينات بغداد لتشبعنا انساً وطرباً، فالحياة ليست عملاً جدياً فقط، وإنما يحتاج الإنسان إلى الترويح عن النفس، وكانت بغداد خير ملاذ للأنس والفرح.

كان شارع أبونؤاس ملتقى أهل الطرب والسهر وكانت مقاهيه وباراته ومطاعمه خير الأماكن للهو. وكم سهرنا مع صديقي الراحل تحسين برواري ونعمان بابان وآخرين من أصدقائنا العرب في ربوع تلك الأماكن الجميلة. وكنا في سنواتنا الأولى نشرب (بيرة) فريدة الممتعة، ولا نسمح للخمرة أن تتغلب علينا، حيث نعرف حدود إمكانياتنا.

وأتذكر في تلك الأيام الجميلة ولياليها الممتعة حين تنضب مواردنا المالية كنا نذهب إلى إحدى البارات ونشرب (ربع عرق) مع المزة محققين نشوة الخمرة ومالئين بطوننا (بالباقلاء واللبلبي) وما امتع تلك المزة العراقية، التي افتقدناها في بلاد الغرب.

لم تنقطع علاقتي بالكرد بعد سفري إلى روسيا للدراسة، فقد خدمتني الأقدار أن التقي صديقين كرديين، لنقضي سنوات الدراسة في مدينة لينينغراد ونعيش في غرفة واحدة في بيت الطلبة. كان عبد الرحمن (عول) ذلك الشاب الأنيق والرشيق خير صديق ورفيق، والصديق الثاني كامران قرة داغي. ذلك الشاب المرح صاحب النكتة الظريفة والمجالسة الشيقة. ولن أنسى ما يعده لنا من طبخات عراقية، كالبامية، والبرياني. وكم تمتعنا بتلك الأكلات مع صديقاتنا الروسيات.

كانت أيامنا مع عبد الرحمن وكاميران في أيام الأسبوع تتميز بجدية عالية، ندرس فيها في مكتبات لينينغراد. وحين يحل مساء الجمعة يبدأ عبد الرحمن بالغناء والرقص الممتع منطلقاً كأنه سجين يرى الحرية لأول مرة. وكانت ليالي الجمعة والسبت من أمتع الليالي نسهر فيهما حتى ساعات الصباح الأولى مع الرقص والشرب والغناء وهكذا انصرمت أيامنا وليالينا ونحن في حالة من الانتعاش والطرب. وفي نفس الوقت عملنا جيداً للنجاح في دراستنا.

وهل تُنسى ليالي لينينغراد البيضاء، والتي تحل في عطلتنا الصيفية بدءاً من حزيران وحتى نهاية شهر آب. كنا نخرج إلى ضفاف النيفا مع الساهرين من أهالي المدينة والسواح الأجانب فنرى الراقصين والراقصات زرافات يؤدون أجمل الرقصات الغربية والشعبية مصحوباً بالموسيقى وما أكثر العازفين على (الأكورديون) والكمان والآلات الأخرى. كانت اكل ليلة مهرجان بدون الإعلان الرسمي عنه. وتستمر السهرات حتى الصباح ولا يرى الراقصون وهم في متعتهم أي سواد لليالي المدينة البيضاء، ولا يشعرون بمرور الوقت. وتتكرر تلك الليالي الممتعة طيلة فصل الصيف.

مدينة لينينغراد

هناك قصيدة نظمتها متغزلاً بليالي لينينغراد البيضاء وهذه بعض من أبياتها:

حب على ضفاف نهر النيفا

متى ألقاك يا أمل فقد ضاقت بيّ الحيل
وجدتك في ليالي الصيف عند تخوم دنيا لفّها البلل
أه (لينينغراد) يا صرحاً بطرف الشمس يكتحل
لياليك صباحات بلا أنوار تشتعل
زمان العشق في واديك يشبه طعمه العسل

كان عبد الرحمن (عول) يرافقني في الصباحات إلى الخليج الفلندي القريب من بيت الطلبة. وهناك محطة لتأجير القوارب. نستأجر واحداً منها ونسرح في ذلك العباب الرقيق الأبيض، الذي يعكس نور الشمس متلوناً مع الوقت باعثاً النشوة مع نسيمه العليل على نفوسنا. وكنا نقضي سويعات جميلة على سطح ذلك البحر الهادئ. بعدها نعود إلى المحطة وكان بجنبها محل صغير يبيع البيرة. نلجأ إليه عطشى وكم كانت تلك البيرة ممتعة وجميلة بالرغم من رداءة نوعها إلا أن شوقنا لشربها يجعلها أمتع بيرة شربناها في حياتنا.

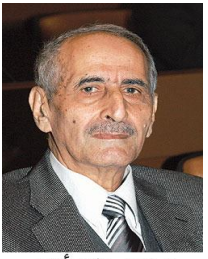
د. كمال مظهر أحمد

استمرت علاقتي بعبد الرحمن في بغداد، فقد عدنا أساتذة في جامعة بغداد. وكنا نلتقي مع كاميران وكمال مظهر في ليالي بغداد الممتعة مستعيدين ذكريات الأيام الجميلة نقضي الليل في متعة كبيرة نرقص ونغني دون أن يعكر صفونا دخيل أو

عارض مزعج.

لكن لم يدم الحال طويلاً فقد احتل بغداد الأمريكان وعكّروا أيامنا ولياليا، جالبين معهم الإرهاب الأسود الذي فرق شملنا، نحن وأصدقاءنا وعوائلنا، فقد هاجر أولادي إلى الإمارات مع أحفادي، وهاجر عبد الرحمن إلى السليمانية مدينته الجميلة الرابضة وسط الجبال. إلا أن القدر اللئيم كان في إنتظار صديقي الهارب من الموت في شوارع بغداد. لتقتله سيارة طائشة يقودها طائش سكران وينتهي عبد الرحمن (عول) في مقبرة السليمانية حيث زرته في المقبرة بدلاً عن تلك الليالي والأيام الجميلة التي أمضيناها معاً ونعيته بهذه القصيدة حزناً عليه.

إلى ذكرى صديقي عبد الرحمن معروف (عول)

يا وحشة الدنيا بما حمل البلاء
وتزاحم الأرزاء بثتها تباريح المساء
يا لعنة الدهر الذي حرم الأحبة من لقاء
خطف المنون العالم النحرير في عز العطاء
عجباً ملاك الموت كيف خطفت عنوان النقاء
(عولٌ) صديق العمر هل حقاً تلحفت العراء
لا لن تغيب فأنت باقٍ في اللباب
أني أراك كما رأيتك في الليالي البيض حباً شامخاً فوق السحاب
واللهو في تلك الليالي الضاحكات معمدٌ بسنى الشباب

أني أراك وبهجة الدنيا علـى (النيفا) وأسراب النساء
والدبكة الحسناء وهي تهزنا طرباً ونمرح في الضياء
صخب الشباب ولهونا والمنشدين مواكباً تشدوا بألحان السماء
ذهبوا ومـا أبقى لنا الموت الرهيـب سوى العـذاب
أعطيت كردستان ما في قلبك المملوء حباً دون خوف وأرتياب
أفرغت روحك في حمّيا العلم تخدم فيه قومٌ راعهم طول الغياب
وجعلت كردستان قبلة ما كتبت وغبت عنها كالشهاب
ولسوف تبقى خالداً كالنجم يسطع نوره فوق الهضاب
(رحمن) سوف أظل في حزني يمزقني اغتـراب

تطورت علاقتي مع الأخوة الكرد بعد الاحتلال الأمريكي للعراق. حضرت مرات عديدة مؤتمرات عُقدت في السليمانية وأربيل، وأذكر أول مؤتمر في ذكرى تأسيس الصحافة الكردية في شهر نيسان عام 2004.

ساهمت بشكل فعّال في ذلك المؤتمر وألقيت كلمة سياسية وقصيدة نظمتها للمناسبة عنوانها (أهلي بكردستان). جاء في كلمتي السياسية حديث عن العلاقات المتوترة بين الكرد ومدينتي (النجف الأشرف) لخروج مظاهرات لرجال الدين بقيادة التيار الصدري تندد بالفدرالية عموماً وفدرالية كردستان.

أذكـر أننـي وبحماسـي المعروف نقلت لهم رسالة مدينتي التي تعبر

دائماً عن الصداقة مع الكرد ودعم نضالهم لنيل حقوقهم وذكرتهم بمواقف رجال مهمين وكبار في مدينتي عبّروا في مواقفهم عن دعمهم النضال الكردي. وأول هؤلاء السيد محسن الحكيم الذي حرّم الحرب ضد الكرد. وكانت الحرب في أشدها من قبل السلطات المركزية ضد كردستان.

كما ذكرتهم بموقف الحزب الشيوعي سلام عادل ابن النجف البار، الذي دعى إلى التظاهر لإحلال السلم في كردستان في عهد عبد الكريم قاسم، إبان الحرب الظالمة ضد الكرد. والتضحيات التي قدمها الشيوعيون آنذاك نتيجة لتلك الوقفة البطلة.

سلام عادل

كما ذكرتهم بقصيدة الشاعر الكبير الجواهري (قلبي لكردستان) ومواقفه المستمرة في دعم القضية الكردية. فكان لكلمتي حول مواقف النجف والنجفيين من القضية الكردية تأثير على الحاضرين مما خفف من التوتر المخيم على العلاقات بين النجف وكردستان.

ألقيت قصيدتي (أصلي لكردستان) وهذه بعض الأبيات من القصيدة:

وقفت عند رباك حائراً وجلا يا أمةً رزحت في بؤسها حقبا

لا الريح يمكن أن تنبي بما حدثا ولا الصواعق تروي صدق ما ارتكبا

جرت على أرض كردستان مجزرة من هولها اهتزت الدنيا فلا عجبا

قابل الحشد الحاضر في الاحتفال قصيدتي بتصفيق حاد واستمر عملي مع الكرد، وبدأت أكتب مقالات مستمرة في جريدة الاتحاد، جريدة حزب الأتحاد الوطني الكردستاني، حيث نشرت العديد من المقالات والقصائد في الجريدة. واستمر تعاوني معهم سنوات خمس. كما نشروا ثلاثة من كتبي في حلقات مستمرة (السيادة في عالم متغير، الحروب العدوانية وما افرزته من قروض وتعويضات بحق العراق، والكتاب الثالث، المعاهدات غير المشروعة في القانون الدولي.

نظمت بحق الكرد ونضالهم قصائد متعددة موجودة في دواويني الثلاث، (حلبجة، إلى أم كردية ثكلى، إلى أمين، العنقاء، قمر كردستان، سفين، دهوك عروسة كردستان).

ونشرت قصيدتين أحاور فيهما فتاتين كرديتين، الأولى كانت رداً على شاعرة كردية (كزال) نشرت قصيدة مليئة بالحزن واليأس عنوانها قص شعري. وكان الرد لا لن أقص شعرك :

من ذا يقص سنى القمر ويزيل أوراق الشجر

من عنده ألق النجوم وزهو أشرعة البحر

كي يلمس الشعر العطر

مديه حباً من ينابيع الجبال يشع دفئاً للبشر

لن تصبغي الشعر الجميل بصبغة الدم فالظلام قد اندحر

وأطل نور الشمس في أرجاء كردستان وانحدر الطغاة إلى سقر

وسينعم الجيل الجديد بعالمِ فتجدد بالحب يزهو بالسمر

أني أرى خيراً عميقاً قادماً من أرض كردستان يغمرنا كحبات المطر

.....

فيم التمني يا كزال يا بلسم المرض العضال

هل يقطع الشعر الجميل فتاً محباً وهو يدنو للوصال

فمتى أشد لك الرحال كي يرتوي نبع الخيال

شدي على طرف الأصابع بانفعال والله ما ضمت يدي حباً محال

.....

قومي اضفري الشعر الطويل بنور كردستان وهجاً يتألقْ

ليكون تاجاً شامخاً رايات نصرٍ في ربى الأحباب تخفق

وتعانق الوجه المنير قصائدٌ غرّاء بالأفراح تشرق

لا لن يقص جدائل الشعر الجميل يراع أحمق

وهناك أبيات أخرى في قصيدة مهداة إلى أميرة كردية اسمها نيان، تذكرتني بهدية جميلة بعثتها مع صديقي العزيز والذي لم افترق عنه منذ أكثر من خمسين عاماً (د. كمال مظهر) الذي حضر مؤتمر في باريس، وهي أي (نيان) تعيش في باريس منذ زمن. فهزتني التفاتتها الجميلة، فكتبت هذه الأبيات مهداة لتلك الكردية الجميلة، وكان الوقت في زمن الحصار الظالم :

أسرتني بلطفها يا زمان غادة جميلة اسمهان نيانُ

غمرتني بلفتةٍ لا تضاهى أنا والله لعطفها ظمأن

لفتةٌ أعادتْ لنفسي الدفئ فنعم محسنةٌ ونعم الحسان

فنيان أميرة كرديةٌ والأميرات جودهن زاخرٌ رنانُ

جاوزت بجودها كرم العرب فسيدات الكرد كلهنّ حنانُ

قدرٌ ذكّر الغيد بنا فطفت إلى السطح ذكرى فالحياة رهان

أن باريس فاتنة التأريخ ما أنست (هيلين) وطناً جماله فتانُ

انفرط الشمل فغادرتنا جموعاً تحمل الصليب لا يجبرها إنسان

أترى يعود أبناءنا يوماً إلى منبع الحب فتعمر الأوطان

وتعود دبكات نوروز إلى قرى الكرد فيزهو برقصها الشبان

ولعل الزمان يعطف يوماً كي يرى جمعنا الجميل (كردستان)

واستمر تعاوني مع الكرد في جريدة الاتحاد حتى حصلت الفرقة المؤلمة مع الأصدقاء، فقد وجدت صدوداً من بعضهم عندما توجهت إلى السليمانية طلباً للعمل، فلم تنجدني توصية رئيس الجمهورية زميلي في كلية الحقوق وصديقي جلال طالباني، ولم تساعدني مواقفي في دعم الكرد والقضية الكردية، فقد رفض عميد كلية القانون أن يوفر لي غرفة ألجأ إليها خلال عملي وانا الهارب من جحيم بغداد في ذلك الوقت. كما لم يوفر راتباً مجزياً يسد حاجياتي في العيش في مدينة السليمانية، فعدت خائباً إلى بغداد.

أوقفت تعاملي وكتابة المقالات في الجريدة، ولم أعد حتى الوقت

الحاضر إلى المشاركة في العمل الصحفي والكتابة في الاتحاد، وحصل لي وما كدرني في أربيل عندما ذهبت للعمل هناك عميداً لكلية القانون في جامعة (هولير) حيث وجدت صدوداً من أصحابي القدماء. فعدت (بخفى حنين) مرة أخرى. وقد علمت أن أصدقائي أداروا وجوههم عني لتهجمي على الولايات المتحدة وسياستها المنافقة تجاه الكرد في مناقشة لرسالة دكتورا لأحد طلابي. وقبل مغادرتي أربيل نظمت هذه القصيدة :

وداعاً أربيل

حزني على وطن الأكراد أرقني ... أربيل كانت نبيذ الورد تسقيني

كنا أحبةَ من كرد ومن عربٍ ... أسوح في عالمٍ حباً يرويني

هنا عرفت رجالاً كان حبهُمُ ... كبلسمٍ من جراح الدهر يشفيني

لكن من ملأوا دنياي بهرجة ... غابوا ولم يتركوا ذكرى تسليني

كانوا ربيعاً جميلاً كله عبقٌ ... كانت عذوبتهم تغزو شراييني

تركت بغداد والذكرى تعذبني ... عليّ أرى عالماً بالحب يغنيني

ها هم أحبة ذاك العهد قد تركوا ... خلاً يعيش على وهم المجانين

قد أنكروا وِدَ أيام لها ألقٌ ... واستبدلوها ببعد صار يشجيني

أني أغادرهم والقلب في حزنٍ ... وموطن الحب في الأحشاء يكويني

ودعت أربيل الحسرات تملؤني ... بأن أقرب من أحببت باعوني

لم أنقطع عن حب كردستان والكرد الطيبين وبقيت أهفو بكل جوارحي إلى تلك المروج الخضراء والجبال الشمّاء متذكراً أيام الزمن الجميل وأصدقائي وأحبتي. قررت أخيراً أن أبيع داري، التي هجرتها بسبب الإرهاب الأسود في منطقتنا. وتوجهت إلى مدينة دهوك المتميزة بجمال جبالها ووديانها، واشتريت شقة جميلة في حي جديد وجميل (أفروستي)، ولكن القدر اللئيم ظل يلاحقنا، فلم نهنأ طويلاً في دهوك فقد هجم الدواعش على الموصل، وهاجموا قرى ومدن كردستان مما اضطرنا إلى مغادرة دهوك والعودة إلى بغداد. ولا نعلم متى سنعود إلى تلك المدينة الحبيبة، فما زالت قوى الدواعش تربض على قلوبنا وتقتل وتسبي أولادنا ونسائنا.

قبل مغادرتي المدينة كتبت قصيدة أتغزل بها :

هذه بعض من ابياتها وعنوانها:

دهوك عروسة كردستان

مرحى دهوك عروسة الأكراد أيقظت فيّ كوامن العُباد

أحببت فيك طبيعة خلابة سلبت لبابَ العاشق البغدادي

اليوم كنت متيماً فوق الربى عطرٌ تضوّع فاستحل فؤادي

الحورُ والأشجار كانت ترتدي حلل الهوى للعاشقين تنادي

شاهدت فيك مرابعاً فتانةً جادتْ فأصبحت قبلةً لبلادي

5

دخلت بغداد وانتميت إلى كلية الحقوق (القانون) وأنا في زحمة أفكارٍ متناقضة تأخذني يومياً يميناً وشمالاً. كانت بغداد حبلى بالأحداث الجسيمة المنتظرة، وكنت أنا الشاب القادم من النجف ضحية صراعي اليومي بين أن أواصل عملي السياسي مع اتحاد الطلبة، بالرغم من انتمائي إلى عائلة برجوازية تقف معارضة لمثل هذا الانتماء. فجميع كبارها ينتمون إلى اليمين المتخلف مع السلطة بحكم ثرواتهم وتجارتهم. وأجد نفسي غالباً في صف المعارضة للنظام الرجعي الاقطاعي المسيطر على الحكم بالحديد والنار.

ولا أخفي حقيقة كانت تملأ علي خطواتي داخل الكلية وخارجها وتتعلق بصراع حاد وخوف يشلني أحياناً من العمل السياسي الذي ينتهي بالسجن حتماً. ولكن وعي المبكر لما يدور ببلدي، وحبي لوطني المتمترس داخلي عقلياً وعاطفياً يدفعني أكثر للخوف من السجن ولن أخفي طموحي ورغبتي القوية بالتمتع بامكانيات طبقتي البرجوازية المتربعة على الحكم، والتي تملك كل ما يدخل الأنس والفرح في حياة أبنائها لوفرة الامكانيات المادية. وكنت أرغب بشدة في التمتع بالحياة وجمالياتها والمتع المتوفرة في بغداد ولياليها، سينماتها، باراتها، ملاهيها.

أي صراع كنت أخوضه يومياً وأنا أنازع نفسي للعمل مع زملائي وأصدقائي في مجال المعارضة للحكم. وكانت كل مظاهرة أشترك

فيها، أنزع الخوف من داخلي وأشترك فيها، أنزع الخوف من داخلي وأشترك بحماس مع اخواني المتظاهرين قامعاً رغباتي المجنونة في المتعة والطرب، الذي يملأ بغداد ليلاً ونهاراً.

كانت بغداد مكتفة بمراسيم نوري السعيد، بل مسلوبة الإرادة السياسية. فلم يتحمل (الباشا) صعود عشرة معارضين إلى مجلس النواب ذي (120) نائباً. قام بحل المجلس بدون تردد وأعلن المراسيم المشهورة بحل الجمعيات والأحزاب والنقابات ومراسيم إسقاط الجنسية عن جميع المنتمين للتنظيمات اليسارية، حركة السلم، الشباب، الطلاب. وقد نفذ إسقاط الجنسية عن العديد من السياسيين ومن ضمنهم المحامي توفيق منذر الشخصية الشيوعية المعروفة بنضالها ومواقفها الصلبة إزاء النظام الرجعي الحاكم والشخصية الثانية المحامي المصلاوي الديمقراطي كامل قزانجي. وقد نفاهم إلى تركيا، وأتذكر كلمات قزانجي عند عودته إلى العراق قال وهو يبكي أنه عند الحدود حمل معه القليل من التراب العراقي لكي يتنشقه في منفاه عندما تحيط به زوابع البؤس والجوع والاضطهاد في البلد الغريب.

وكانت بغداد تبدو لمن يراها خائفة خانعة راضية بما قام به (الباشا) من تدابير لوأد الحركة الوطنية، ولكن المتمعن والعارف ببواطن الأمور يعلم بأن المدينة كانت تغلي من الغضب والمعارضة ولن تخنع للإجراءات القمعية لوزارة السعيد. فقد عرفت شوارعها ومعاهدها انتفاضات جماهيرية عديدة، حتى بعد إعدام قادة الحزب

الشيوعي وسجن الكثير من قادته بعد عام 1949، حيث قامت الانتفاضة الكبيرة التي هزت حكم الاقطاعيين والرجعية عام 1952 مما اضطر عبد الإله إلى تكليف رئيس أركان الجيش (بهاء الدين نوري) لتأليف الوزارة وإعلان الأحكام العرفية.

كان (الباشا) يمهد بإجراءاته تلك إلى عقد حلف بغداد مع إنكلترة، ايران، تركيا، الولايات المتحدة، باكستان، وفعلاً تم ذلك. لكن الحلف لم يصمد طويلاً أمام نضال الشعب العراقي الذي أسقطه عام 1958 في ثورة تموز.

أخطأ السعيد وحلفائه من الحاكمين والرجعيين في عملهم ومحاولتهم إيقاف التقدم الديمقراطي من خلال الحياة النيابية، وفسح المجال أمام المعارضة العلنية والرسمية. كان من الممكن أن تتطور الديمقراطية في العراق، ولو ببطئ، وبدون ان تلجأ القوى الوطنية داخل الجيش وخارجه العاملة بشكل سري إلى القيام بالثورة بعد عملية الكبت والاضطهاد، التي تعرض لها الشعب العراقي خلال الحكم الطويل (للباشا) وجماعته من الطغمة الرجعية، التي تولت مقاليد الحكم منذ نشوء الدولة العراقية حتى سقوط الملكية عام 1958. وكان الحليف القوي لنوري السعيد، الوصي على العرش (عبد الإله) هو الحليف والسند القوي لحكم الباشا الذي قتل والملك مع نوري السعيد في صبيحة الثورة في تموز 1958. ولولا العنف في حكم النظام البائد لما كانت هنالك ثورة دموية، والتي أطلقت جحيم العنف الدموي، الذي رافق حياتنا منذ عام 1958 حتى الوقت

الحاضر. وبدأت الموجات العنيفة الدموية تتصاعد مداها مع السنين بين الأحزاب السياسية، التي تركت العمل السلمي وتوجهت نحو العمل الثوري وما أعقب ذلك من دماء زكية نزفها العراق وما زال ينزفها .

الوصي عبد الاله ورئيس الوزراء نوري السعيد

كنا شباباً أكملنا لتونا مرحلة الثانوية، وزُج بنا في خضم العمل السياسي اليساري، وهو البودقة والبؤرة التي تلقفتنا نحن المحرومون والواعون بما يدور في بلدنا، وأغلبنا ينتمي إلى الطبقة البرجوازية الكبيرة والصغيرة، والتي قاد أبنائها العمل السياسي سنوات طويلة، سواء عن طريق انتمائها لليسار (الحزب الشيوعي) أو الوسط الحزب الديمقراطي، الاستقلال، أو اليمين المتمثل بالأحزاب الرسمية، الدستوري، الأمة الاشتراكي.

نعم كنا نحن رأس الحربة في خضم العمل الثوري والسياسي في عراق الخمسينيات. وكان اتحاد الطلبة بجماهيره الكبيرة، في بغداد

والمدن الأخرى يقود الحركة السياسية، وينشط بشمل سري، فقد كان ممنوعاً بمراسيم وقوانين الحكم الرجعي من ممارسة النشاط العلني.

كنت في حالة انتظار مقلق، فقد مرت أسابيع عديدة ولم يتصل ممثلوا اتحاد الطلبة بي لكي نبدأ العمل الطلابي المنظّم. وفي أحد الأيام جاءني شخص لم أعرفه من قبل، وقدّم نفسه بأنه مبعوث الاتحاد واسمه (نوري). رحبت به وخرجنا نتمشى في شوارع الوزيرية للتعرف على بعضنا والحديث عن وسائل العمل وآلياتنا في التنظيم الطلابي السري. وكان حديثنا على أهم ما يجب أن نقوم به في تلك الأيام والسنين المغلفة بأبشع إرهاب عرفه العراق، بعد إصدار تلك المراسيم والقوانين الرجعية التي حرّمتْ جميع النشاطات الطلابية والعمالية والنقابية والأحزاب الوطنية.

أخذ عملنا يتطور ووضعنا نصب أعيننا كسب الطلبة إلى صفوف الاتحاد بعد التعرف على مشاربهم واتجاهاتهم السياسية. وكنا على علم مسبق بأننا نستطيع كسب الطلاب القادمين من الألوية والأقضية من خارج بغداد (المحافظات) حيث كان معلوماً لدينا أن كلية الحقوق، هي القلعة لأبناء الطبقة العليا من المجتمع البغدادي، فمنها تخرج أغلب حكام العراق وبقيت مرتعاً لهم ولأولادهم بعد أن شكلنا أول مجموعة لنا في الصف الأول، مني ونوري وباسل ومصطفى وتحسين برواري، وكنا نلتقي أسبوعياً وأحياناً حتى أيام الامتحانات كل شهر. تعرفنا على عشرات الطلاب

القادمين من خارج بغداد. واستطعنا أن نضمن جماهيرية لا بأس بها وسط أولئك الطلبة المتحمسين للعمل الطلابي.

كانت الكلية منقسمة بيننا كيساريين من اتحاد الطلبة وقوميين وبعثيين، الذين بدا عملهم السياسي يظهر للوجود في تلك السنوات، وكانت كلية الحقوق ملتقى للنشطاء منهم. وكانت علاقتنا ودية واخوية مع اولئك الطلاب واستطعنا أن نتعاون معهم في الحقول الاجتماعية، عن طريق السفرات المختلفة. واجتمعنا سوية لنتعاون لإقامة حفلة قد تكون الأولى من نشاطات الكلية خلال حياتها الطويلة، وكانت تلك الحفلة ثمرة طيبة لنشاطنا. اتصلنا بفرقة المسرح الحديث لتقديم إحدى مسرحيات الفنان يوسف العاني (لو بسراجين لو بالظلمة) ذات المحتوى الاجتماعي والوطني، وأعددنا فقرات برنامج الاحتفال ولكن العميد وكالة (البشير) أخبرني بعد ان عرف توجه الحفل التقدمي وطبيعته المعادية للسلطة. قال لي بالحرف الواحد، أن السيد وزير المعارف (خليل كنة) سيكون ضيف الحفل، الذي يفتتحه باسم الكلية. بينما كان من المقرر أن يكون الافتتاح باسم اتحاد الطلبة.

الفنان يوسف العاني

اجتمعنا نحن الطلبة التقدميون بقيادة حلقتنا الأولى، المتكونة من أربعة أشخاص وقررنا إلغاء الحفلة قبل ثلاثة أيام من الموعد المقرر للاحتفال. وكان لهذا الأمر دوي كبير بين طلبتنا وطلبة

الكليات الأخرى، فقد عرف الجميع أن سبب إلغاء الاحتفال هو بسبب دعوة وزير المعارف السعيدي والمعروف بعدائه للحركة الوطنية.

ومن النشاطات الأخرى المميزة مع ممثلي الطلاب البعثيين والقوميين تعاوننا المشترك لدعم الثورة الجزائرية. قمنا سوياً بحملة جمع التبرعات لحركة التحرير الجزائرية وكان هذا العام (1956) يحمل في طياته تباشير عمل سياسي واجتماعي كبير. وقد حدث أثناء عملية جمع التبرعات، وكنا في الصف الثاني في الكلية، أن دخل ممثلوا الطلبة أثناء محاضرة أستاذ القانون الجنائي (علي الخلف). وحين أراد أحد ممثلينا الحديث عن الثورة الجزائرية وضرورة دعمها، قاطعه الأستاذ ساخراً، يكفي أن تتاجروا بالكلمات الوطنية ومنعه من الاسترسال، وقد حدثت ضجة بيننا نحن طلاب الصف الثاني مما دفع الأستاذ لمغادرة القاعة، بعد أن شاهد الغضب الذي اجتاح الطلاب وخشي من العواقب.

لم نسمح بأن تمر تلك الإهانة للثورة الجزائرية ولنا، فقررنا بعد اجتماعنا نحن ممثلوا الاتجاهات المختلفة أن نضرب في درس الأستاذ المذكور. وحين حلّ موعد المحاضرة الثانية. كتب أحد الطلاب إعلاناً على السبورة يعلم الأستاذ بالإضراب عن حضور محاضرته بسبب موقفه غير الوطني والمهين. دخل الصف فلم يرَ أحداً منا وقرأ الإعلان وكان عند خروجه مصفر الوجه يرتجف من قوة الصفعة الموجهة له. وكنا نحن مجتمعين خارج الصف ننظر إليه باحتقار مما جعله يفر هارباً لغرفة الأساتذة.

بعث لنا برسالة إعتذار طالباً الاجتماع بنا، قبلنا ذلك وحين اجتمع بنا في القاعة كان يكاد أن يبكي وهو يعتذر عما بدر منه مؤكداً أنه لا يمكن أن يكون معادياً للثورة الجزائرية أو الحركة الوطنية العراقية، طالباً منا الغفران لموقفه غير المشرف. وكان ذلك نصراً لنا دوّي في كلية الحقوق، التي لم تعرف الإضراب من قبل.

لم أكن مقتنعاً تماماً بالحياة الجافة التي يعيشها السياسي، وكأنه منقطع عن مباهج الحياة وجمالها. كنت مليئاً بالتطلعات البرجوازية المنطوية على سبيل الاستمتاع بالملذات المتوفرة. وكنت شاباً في العشرينيات من حياتي، أحب الحياة ومباهجها وأرغب في اختطاف ما أستطيع من متع وملذات توفرها مدينة بغداد لأهلها.

تعرفت بعيداً عن الكلية وأجوائها على شلةٍ من الأصدقاء الشباب المتطلعين مثلي إلى إغتراف مايستطيعون من جماليات الحياة. كان ذلك التعارف عن طريق صديقي النجفي الساكن في مدينة بغداد (أحمد)، وكان أول لقاء معهم في مقهى روكسي المحاذية لسينما روكسي، وكانت الشلة تتكون من ثلاثة مسيحيين، البير، جوزيف، سليم، ومسلمين من السنة شهاب البرزنجي الكردي البغدادي ذي الشخصية الجذابة، واللطف والمهابة التي تكمل صفات ذلك الشخص، الذي لا أعلم أين هو الآن نتيجة للظروف القاسية التي يمر بها البلد، والتي فرّقت الأحباب وفرّقت الأسر البغدادية، وأحمد أبو شذى، وكنا أنا وشقيقي الأكبر سامي وصديقي أحمد.

كانت تلك الشلة هي مدار اهتماماتي ومجالاً كاملاً للتعرف على حياة بغداد ومجالات الطرب والمتعة. وكنا نلتقي يومياً في المساء في مقهى روكسي ونخطط لمشاريعنا اليومية والمستقبلية.

كانت متعتنا تقتصر على الممارسات البريئة، وكنا بعد الجلوس في المقهى وتبادل الأحاديث المختلفة، وفي مقدمتها ما يدور في بغداد من إشاعات وأحداث سياسية. وكان أصدقائي من حملة الفكر اليساري وإن كانت إنتمائاتهم برجوازية، ولم يكن ذلك غريباً على المثقفين اليساريين، فأغلبهم ينتمون إلى عائلات برجوازية كبيرة أو صغيرة، وهم أي المثقفون البرجوازيون من كان يقود النضال السياسي في العراق، حتى داخل صفوف الحزب الشيوعي، بالرغم من إدعاءات الشيوعيين تخليهم عن رغباتهم وتطلعاتهم البرجوازية ، إلا أن نكران حقيقة مشاعرهم وعواطفهم وحبهم بمتع الحياة تفضح حقيقة إنتمائهم الطبقي. إلا أن ذلك لا يعني ابتعادنا عن ممارسة العمل السياسي والتضحية كبرت أو صغرت في سبيل الوطن والحرية.

وكانت متعنا في مشاهدة الأفلام الأمريكية الحديثة التي تؤرخ فترة من أعظم فترات السينما العالمية. وكان ابطال تلك الأفلام من أعظم الممثلين، والذين لا يمكن أن نقارن بهم ما تنطوي عليه أفلام الرعب والجنس في الوقت الحاضر، والتي غزت سينمات العالم، وعقول المراهقين والشباب. تلك الأفلام العنيفة، التي زادت من عنف الشباب وحرفت تطلعاتهم الطبيعية.

كانت أفلام الخمسينيات من بطولة، تايرون باور، كريكوري بك وممثلات قديرات وجميلات، اليزابث تايلور، مارلين مونرو، والعديد من ذلك الرعيل المقتدر فنياً وجمالياً.

كانت حقاً متعة كبيرة أن تشاهد فلماً كفلم (ذهب مع الريح) وفلم (هيلين بطلة طروادة) وفلم (سبارتاك) محرراً العبيد، والأفلام التأريخية حول الإمبراطوريات الكبيرة، الرومانية، والأغريقية، والأفلام العربية المنتقاة، والتي يشترك في تمثيلها يوسف وهبي، فاتن حمامة، مديحة يسري وغيرهم من النجوم الكبيرة، والتي نفتقدها في الوقت الحاضر بسبب الإنحدار الذي لحق بالفن السينمائي العربي والعالمي.

هكذا كانت على الأغلب قضاء ليالينا في بغداد ونحن الأصدقاء المجتمعون مساءً في المقهى. وهناك متع ونشاطات أخرى مهمة في حياتنا، فقد كنا نذهب لتعلم الرقص الغربي في المعهد الجديد الذي افتتحه شابان مسيحيان البير وبطرس جنب سينما الأورفلي واستمر تعلمنا للرقص الكلاسيكي، التانجو، الرومبا، السامبا، الفالس لمدة سنة كاملة تقريباً، واستطعنا أن نجود في اتقانها.

وكم شعرت بالفخر في أول حفل دعيت إليه من قبل السيدة نجاة وزوجها، حين دعيت لعيد ميلادها، تلك الحفلة الأولى في حياتي، والتي كانت حافلة بالموسيقى والغناء والطرب العراقي الأصيل، فقد أحيا الحفلة ناظم الغزالي وزوجته سليمة باشا، وكان

الجنس اللطيف زينة الاحتفال، فلم أكن قد عرفت مثل تلك المتعة الجميلة في احتفالات الطبقة البرجوازية الكبيرة وكنت قد شربت (الويسكي) لأول مرة في حياتي مما أشعل الحماس والإنطلاق. فدعوت للرقص العديد من الفتيات حين كانت تعزف التانكو، وكانت أجمل رقصة مع ربة البيت صاحبة الاحتفال رقصة الفالس على أنغام الموسيقى النمساوي الكبير شتراوس. وكم درت ودرت معها وسط القاعة وأنا أكاد أن أطير في عالم أسطوري لم أعيش مثله أبداً في حياتي السابقة والبائسة. وكم كنت منتشياً والصبايا يمدحن إجادتي الرقص الغربي. وقد سألني أحد الحاضرين من الأصدقاء هل تعلمت الرقص في سراديب النجف ؟ وكانت نكتة ضحك لها الجميع، فالنجف معروفة بتقاليدها وعاداتها المحافظة وكونها مركز ديني يحرّم مثل تلك الممارسات.

وبقيت أبحث عن الأنثى خلال سنواتي البغدادية، الأنثى التي آنس بها وتشاركني حزني النجفي. كنت لا أستطيع أن أشفي غليلي بمعاشرة بنات الهوى، فتلك المعاشرات المقززة لم تكن سوى تلبية لحاجة بيولوجية ولكني كنت أتقزز بعد انتهاء العملية وألعن نفسي على تعاطي مثل تلك الممارسات فطموحاتي وافكاري كانت تدور حول علاقة نقية مع فتاة تشاركني عواطفي وأحاسيسي.

وكانت (هجران) هي اللقيا في تلك الحفلة، جاءت وحيدة بينما كان الحشد يتألف من (كبل) زوجين إمرأة وزوجها. وبعد مراقصتها

والتعرف عليها، علمت بأنها وحيدة وغير متزوجة، مما أثار فضولي للاستزادة من معرفتها.

جلسنا سوية نتبادل الأحاديث فأخبرتني أنها طالبة في الصف الرابع من كلية الهندسة وتنتمي إلى عائلة برجوازية، وهي من أقارب (نجاة) صاحبة الدعوى. وأطلعتها على حياتي ومن أكون واهتماماتي بالفن والقراءة وحبي للحياة المرحة، فلقيت تجاوباً وانسجاماً مع تلك الفاتنة، كنت أعلل نفسي بأن الحظ قد ابتسم لي وسوف أجد في تلك الفتاة الجميلة صديقة، أعيش وإياها أياماً هانئة، فقد ضجرت من حياتي الجافة مع أصدقائي الذكور. وعملي السياسي الخطر، الذي يتهدد حريتي في كل لحظة.

خرجت من تلك الحفلة المميزة والأولى في حياتي البغدادية وأنا في منتهى النشوة والسعادة. وقد لعبت الراح لعبتها في إثارة مشاعري وعواطفي وكانت نقلة مهمة في حياتي الاجتماعية بعد تعرفي على هجران وأملي في تواصل تلك العلاقة. وقد قررت أن أذهب سيراً على الأقدام إلى بيتي الذي لا يبعد كثيراً عن دار أصحاب الدعوة في الكرادة الشرقية. كان الجو الربيعي في غاية الروعة، فعطر القداح يملأ الدنيا ضجيجاً وينعش النفوس المتعطشة إلى الحب والجمال. لا يمكن لأي عطر أن يضاهي عطر القداح، الذي يعصف بالشباب لمدة أسبوعين وينقلهم إلى عوالم وردية جميلة منعشاً فيهم تطلعهم للحياة والمرح. فربيعنا من أجمل الربيعات التي

عرفتها في العوالم التي عشت فيها، بفضل زهر القداح المثير للمشاعر الحبيبة والشبابية.

كنت وأنا في طريقي أدمدم بأبيات شعرية والنشوة تلهمني بقصيدة غزلية تدور حول تلك الصبية الجميلة (هجران). وكان القلم والورقة يرافقاني دائماً فبدأت القصيدة بعد خروجي من دار أصدقائي وأنا أترنم بأبيات غزلية حتى نهيتها عند دخولي داري في شارع العطار في الكرادة الشرقية وهذه بعض الأبيات من تلك القصيدة :

سأهجر دنياي من أجلها فقد همتُ عشقاً بأهدابها
فهجران دان لها الأولون وجئت أدق على بابها
حُرمتُ سنيناً ذوات الجمال وقعت صريعاً بأعطافها
فسبحان من جاد على العالمين بفاتنة أرهقت عشاقها
قوامٌ جميلٌ ووجهٌ صبوحٌ وعطرٌ يضجُ بأطرافها
تمنيت قلبي مهداً لها ليشبع حباً بأحضانها
أرى دَهشاً حسن أوصافها وأهتز شوقاً لإغرائها
أذوب بمرأى سنى ثغرها ويلهمني فجر إشراقها
فُتنتُ ببدر شهيّ الوصال وعشت هنياً شغوفاً بها

بعد أيام قليلة وأنا أعيش ذكرى تلك الليلة البهيجة رنّ جرس التليفون، فكانت المفاجأة صوت أنثى ساحر يناديني بأسمي، كانت

عذوبة ذلك الصوت تثير في داخلي شتى الأحاسيس، فلم أستمع من قبل لمثل ذلك الصوت الموسيقي. لم أتعرف على صاحبة الصوت لأول وهلة، تساءلت من هي صاحبة الصوت الموسيقي، أجابت بضحكة خفيفة، هكذا الرجال سرعان ما ينسون وعودهم، فقد وعدتني لدعوة عشاء (سمك مسكوف) في شارع أبي نؤاس، صعقت واهتزت أطرافي، أنا الطامح لمعاشرة تلك الصبية الجميلة، كيف أنسى صوتها ولم تمر سوى أيام قليلة .

فرحت كثيراً بتلك المحادثة، فقد نسيت أنني أعطيتها رقم تليفوني وبادلتني برقمها. فقد كنت سكراناً، والسكر حتى مع الأنس والطرب ينسي الإنسان الكثير من الأمور. ولكن هل تنسي مثل تلك الحفلة الفخمة، والتي فتحت علىّ دنيا لم أكن أحلم بها، فكيف أنسى ذلك الوعد الذي قطعته لها. قلت وأنا أكاد أن أطوف بعيداً في عوالم الحب الجميل، أنني في غاية السرور لدعوتها إلى ذلك العشاء المرتقب، والذي سوف يكون في أجمل بقعة في بغداد أنه شارع (أبو نؤاس) ذو النكهة الجميلة، والموقع الساحر على نهر دجلة.

نصب شهرزاد و شهريار في بغداد

وكان اللقاء في تلك الأمسية من أماسي ربيع بغداد معها. هي هجران بشحمها ولحمها. ولم أكن أتوقع أن توافيني بمفردها، أنا ابن تلك العائلة المحافظة، فكيف أتصور وأفكر بفتاة بعمر هجران تملك حرية الخروج بمفردها وفي الليالي الصاخبة في شارع أبو نؤاس، قابلتها وأنا أتلعثم بالسلام والكلام لعدم تصديقي ما يحصل، شددت على يدها الرقيقة وتسربت ابتسامتها العذبة وهي تجيبني باجمل التحية. جلسنا وأنا في حيرة كيف أبدأ الكلام وعن أي المواضيع أحدثها، ولكني تداركت الموضوع وذهبت لأوصي على (سكف) سمكة لعشائنا.

حلّ فصل الصيف في بغداد، وكان البغداديون وأنا منهم ننتظر هذا الفصل لاعتداله في مدينتنا الحبيبة، خلافاً للمدينة القديمة (النجف) ولعل السبب يكمن في أن مدينة بغداد بمثابة بستان كبير تتخللها الشوارع والبيوت ذات الطابق الواحد، والمبنية بالطابوق فلم يعرف بُنات بغداد الأسمنت القاتل، كانت الكرادة مليئة ببساتين النخيل وأشجار الفاكهة المختلفة، بل لم تكن بستاناً فحسب، بل غابة من الأشجار المثمرة والكثيفة وكذلك حي الأعظمية المزهر ببشره وطبيعته الجميلة.

لم تكن تعرف بغداد خمسينيات القرن الماضي وسائل التبريد الحديثة، المكيف والمبردة، فقد كانت المروحة المنضدية أو السقفية تكفي لبث جو من البرودة في غرف الدار المحاطة دائماً بحديقة خضراء تنبت فيها كل أنواع الأشجار والثيّل وكنا ننام في الليل على

سطوح دورنا، ونغطي أجسادنا بالبطانيات خشية من البرد، خصوصاً في فجر بغداد البارد، ولم تعرف بغداد هذه الكثافة من الدور المليئة بالخرسانة بعد تجريف بساتينها اليانعة في مختلف محلات المدينة.

أذكر جيداً عند خروجنا من بغداد باتجاه أبو غريب، تبدأ البساتين المكتظة بالنخيل وأشجار الزينة والفواكة عند خروجنا من مطار المثنى وحتى أبو غريب، ولم تعرف هذه المنطقة هذه الكثافة من المحلات الجديدة، أراضي وزعها الزعيم قاسم على الجمعيات وتحولت خلال سنوات قليلة إلى بيوت مبنية بالسمنت بدل الجص والطابوق، خصوصاً الفرشي، الذي كان يزيّن السطوح لبرودته بعد رشه بالماء مساءً. أين بغداد الباردة قبل خمسين عاماً من بغداد الحالية التي تقتلها عشرات آلاف السيارات نافثة أوكسيد الكاربون الذي يتنفسه سكان المدينة بدلاً عن الأوكسجين المنبعث من بساتين بغداد السابقة هكذا تغيرت الحياة في مدينتنا بكل المجالات ومنها ما غيرّه السكان بطبيعتها.

كانت شلتنا تستعد بفرح لاستقبال الصيف بعد عام ثقيل من الدراسة والإنشغال بالسياسة، قررنا أن نلجأ كما يفعل الآخرون لبناء (جرداغ) على ضفة أبو نؤاس لقضاء فصل الصيف.

اخترنا بقعة في منطقة قريبة من دار أخي الكبير في منطقة أبو قلام، خضنا في مخاضة الطين بعد أن انسحبت مياه دجلة من

الضفتين. كنا مسلحين بالعمدان والحصران لبناء ذلك الكوخ الجميل المسمى (الجرداغ) بلغة أهل بغداد، تعاونا سوية، شهاب، أحمد، سامي، سليم وأنا معهم في تكملة بنائها في يوم واحد، وجلبنا الأثاث البسيط، الذي يصلح لمثل هذا السكن الصيفي، كراسي مصنوعة من جريد النخيل مع طبلات، وطاولة كبيرة مصنوعة من نفس المادة، وبدأنا منذ اليوم الأول في إقامة سهراتنا الصيفية على ضفاف الشارع الساحر (أبونؤاس).

كنت في شبابي أمارس رياضة رفع الأثقال، جهزت الجرداغ بأثقال اشتريتها من محلات الرياضة في شارع الرشيد كما وقمنا بشكل مشترك بشراء زورق لممارسة رياضة التجديف وقضاء أوقات السمر في ليالي بغداد الجميلة، كنت أجدف الزورق والجماعة الصغيرة تبدأ في غناء جماعي مصحوباً بشرب البيرة العراقية، حتى نصل جسر الباب الشرقي، ونعود مرة أخرى بعد قضاء وقت ممتع ورائع وسط ذلك النهر الخالد، دجلة .

كانت لياليا تبدأ بالتحضيرات المعتادة للطعام والمشروب الذي كان غالباً (بيرة فريدة) التي نشتريها قبل السهرة بساعتين ونضعها في صندوق الثلج المعروف آنذاك بثلاجة الفقراء، ولكنه كان يكفينا لتبريد المشروب والاحتفاظ بالفواكه الطازجة من ثمار الرقي والبطيخ، المشمش والعنب والعرموط وبقية الفواكه التي نحصل عليها، والتي كانت مبذولة لكثرتها في محلات بيع الفواكه في مدينتنا .

كان صيادوا السمك يعودون مساءً من نوباتهم في الصيد جالبين معهم أنواع السمك المعلقة بحبال تسحبها الزوارق وهي حيّة، كانوا يتوقفون حيث الجراديغ لبيع محصولهم. وكنا نشتري السمك منهم لكل فرد سمكة من الشبوط الشهي بسعر زهيد لا يتجاوز الثلاث دراهم، في الوقت الذي يباع منه بدينار لدى مطاعم الأسماك المسكوفة في شارع (أبو نؤاس)، وكنا نشترك في عملية السكف الممتعة متعاونين في إشعال النيران وتعليق السمك من ظهره على عمدان صغيرة حتى ينضج بعد فترة من الزمن، وكان عشاؤنا في غاية الامتاع، في كل ليلة تقريباً.

هكذا كنا نقضي أوقاتنا الصيفية في السباحة وممارسة ألعاب الرياضة المختلفة من تجديف إلى ممارسة لعبة كرة الطاولة (لعبة المنضدة) حيث جلبت طاولتها من دار أخي الكبير الذي سافر مع عائلته لقضاء فصل الصيف في لبنان. لا أدري كيف أصف تلك الحياة البريئة والجميلة والمليئة بالحب والسمر مقارنة بأيامنا المليئة بالمفخخات والاغتيالات وهجمات الإرهابيين من دواعش ومليشيات تنغص علينا حياتنا.

كنا نترقب في شوق معارض الفنانين العراقيين الروّاد، فقد كنا نهوى جميع أنواع الفنون وخصوصاً الرسم، وكان الرواد وفي مقدمتهم جواد سليم يقيمون من آن لآخر معرض لرسوماتهم المميزة. وكنت أتمتع مع اصدقائي ونحن نشاهد تلك المعارض التي

أقامها الرسامون الكبار فائق حسن، خالد الجادر، كاظم حيدر، الشيخلي وزوجته سوزان مع كبير النحاتين جواد سليم.

الفنان العراقي جواد سليم

كانت مدارس الرسم معروفة لي، فالأكاديمية، والانطباعية، والسريالية، التي لم أفهمها ولم أرتاح لرسومها، ولعلها كانت أكبر من مداركي وأشك في ذلك. فلم أكن أفهمها ولا أستطيع استساغتها حتى بلوغي هذا العمر وطوافي بالكثير من المتاحف العالمية، الأرمتاج، المتحف القومي في لندن.

كنت أحب ومازلت الرسم الانطباعي، فقد عشقت خليط الألوان المعبرة عن كل أطياف الحياة، وكان عظماء الفنانين، كوكان، فان كوخ، سيزار، مانيه، هم ممثلوا هذه المدرسة العظيمة، فقد صوروا بألوان زاهية جميع أشكال الحياة الطبيعية والبشرية ولم يقصر فنانونا الكبار في هذا المجال، ولكن الطاغي في رسوماتهم طابع المدرسة الكلاسيكية، والتي كانت لسنين طويلة سيدة المدارس في العالم

وكنا أيضاً من عشاق الشعر الكلاسيكي، فلم تكن قصيدة النثر، التي شوهت الشعر معروفة في أعوام الخمسينيات، بل كانت القصيدة الحرة التي كتبها السياب، نازك الملائكة، عبد الوهاب

البياتي. لكننا كنا نتابع بشوق ولهفة ما ينظمه شاعران كبيران الجواهري بقصائده الوطنية ونزار قباني شاعر المرأة بقصائده الغزلية، وكنت متأثراً بهما إلى درجة كبيرة. كما كان شبابنا ذو الذوق السليم يتابع ما ينظمه الشاعران الكبيران.

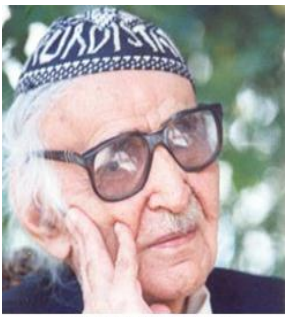
محمد مهدي الجواهري

كنا شهود معركة شعرية ووطنية في خمسينيات القرن الماضي، حيث خرج الجواهري عن قصائده الثورية والوطنية بقصيدة مدح فيها الملك فيصل الثاني عند تتويجه عام 1953 (ته يا ربيع) وكنا في حزن لهذا الموقف الغريب للجواهري الذي قاد انتفاضة 1948، فلم يُعرف عنه بالرغم من فقره مدح الطبقة الحاكمة. فقد كان مثالاً للوطنية الصادقة.

ظهرت قصيدة تتعرض لشاعرنا الكبير وتقدح فيه بكلمات نابية نسبت تارة للشاعر محمد صالح بحر العلوم، وتارة للشيوعيين أصحاب الجواهري، كان مطلع القصيدة :

صه يا رقيع فمن شفيعك في غد فلقد صدئت وبان معدنك الردي

ثارت ثائرة الجواهري فردّ على كاتب تلك القصيدة ومروجيها بقصيدة هجاء هزت أركان المجتمع الثقافي في بغداد وهذه أبيات من قصيدة يستكلب الذيب :

عدا عليّ كما يستكلب الذيب خلقٌ ببغداد أنماطٌ أعاجيب

خلقٌ ببغداد منفوخ ومطرحٌ والطبل للناس منفوخ ومطلوب

خلقٌ ببغداد ممسوخ يفيض به تأريخ بغداد لا عربٌ ولا نوب

لو شئت مزقت أستاراً مهلهة فراح سيّان مهتوكٌ ومحجوب

مشتْ إلي بعوضاتٌ تلدّغني وهل يحس دبيب النمل يعسوب

وقبلَ ألفِ عوى ألفٌ فما انتقصت (أبا محسّد) بالشّتم الأعاريب

ضج المجتمع بتلك القصيدة، التي امتلأت باوصافٍ للمتجاوزين على الجواهري لم يعرفها المثقفون ولا الشعراء من قبل، وكانت ثورة الجواهري عاتية على خصومه.

سرت في أوساط بغداد السياسية والأدبية أن أبا فرات تراجع عن مواقفه الوطنية وذهب بعيداً في مسايرة الطبقة السياسية الراهنة التي حكمت العراق بالحديد والنار. لكن ما حصل بعد فترة قصيرة أن أبا فرات عاد إلى حظيرته الوطنية والثورية حين دعي إلى دمشق لتأبين العقيد عدنان المالكي، الذي اغتالته العناصر المماثلة للاستعمار، فصرخت عقيرته في الحفل بتلك القصيدة الوطنية العصماء :

وهذه بعض من أبيات القصيدة :

خلّفتُ غاشية الخنوع ورائي وأتيت أقبس جمرة الشهداء

ودرجت في دربٍ على عنت السرى ألقِ بنور خطاهم معّناء

خلفتها وأتيت يعتصر الأسى قلبي وينتصب الكفاح أزائي

وحمدت نفساً حرةً لم تنتقص شهد الوفاء بعلقم الأغراء

عدنان أن دماً وهبت رسالةً أنا من صميم دعاتها الأمناء

واستمرت متابعتنا للجواهري وهو ينظم القصائد الوطنية في المناسبات المهمة في تأريخنا، خصوصاً بعد ثورة تموز المجيدة وما نظمه بحقها من قصائد، ودبج من مقالات مهمة في دعم الثورة حتى حصلت القطيعة بينه وبين عبد الكريم قاسم بعد أن هاجم موقف قاسم في مقالة حول جرائم الاغتصاب في الميمونة[1]

وبقينا نتابعه حتى بعد هجرته إلى (براغ) ومن ينسى قصيدته العصماء وهو يودع العراق – يا دجلة الخير – وهذه بعض من أبياتها :

---

(1) حدثني طيب الذكر الشخصية الوطنية عبد الفتاح إبراهيم في إحدى لقاءاتنا الدورية في داري او داره وفي لقاء يوم الجمعة لدى المرحوم الأستاذ سالم عبيد النعمان قائلاً: إن الزعيم دعاه إلى مكتبه في وزارة الدفاع ، حيث ظّن بأنه يريد تبليغه موافقة الحكومة على طلب إنشاء حزبه الجمهوري ، ولكنه فوجئ بأن الزعيم أخذ يهاجم الجواهري ويتهمه بالعمالة لنوري السعيد ، وأخرج قصاصة ورق من القاصة وكانت تتضمن عقداً يقضي بمنح الجواهري ملكية أرض في العمارة ، وكان منفعلاً وهو يحدثني عن عدم وطنية بعض المؤسسين لحزب (الجواهري) متهماً إياه بعدم الوطنية أيضاً، .فأجابه عبد الفتاح إبراهيم، أليس الجواهري مواطناً عراقياً يحق له امتلاك قطعة أرض كالآخرين ، فلم يُرضي جواب عبد الفتاح الزعيم آنذاك ولم يمنحه إجازة الحزب الجمهوري ، وكان وجود الجواهري من ضمن مؤسسي الحزب أحد الأسباب في عدم إجازته.

يا دجلة الخير يا أم البساتين حييت طرفك عن بعدٍ فحييني

حييت سفحك ظمآناً ألوذ به لوذ الحمائم بين الماء والطين

يا دجلة الخير يا نبعاً أفارقه على الكراهة بين الحين والحين

أنيّ وردت عيون الماء صافية نبعاً فنبعاً فما كانت لترويني

وأنت يا قارباً تلوي الرياح به ليّ النسائم أطراف الأنانين

ودت ذاك الشراع الرخص لو كفني يحاك منه غداة البين يطويني

كنت وما زلت أكن لشاعرنا العظيم الجواهري احتراماً وتقديراً وحباً كبيراً، وكنت متأثراً بشعره، وحين وافته المنية نظمت قصيدة بلغت مائة بيت بحق الجواهري. وهذه بعض من أبيات القصيدة :

جرؤ التراب فضّم في أحشائه نجماً أطلّ على العراق فنوّرا

أترى يموت النجم ام يهوى من العلياء جسماً بارداً كي يقبرا

أبداً سيبقى النجم نوراً خالداً كخلود شاعرنا العظيم بلا أفترا

قسماً دمشق حضنت أعظم شاعرٍ فتشرفت دنياك وأنبهر الثرى

اسكنتموه جوار زينب مرقدا قبلَ المقامُ تأدباً وتحضرا

فمقامه جنب الإمام بروضةٍ شرفٌ يضاف لشاعرٍ ما غيرّا

هو ابن خير مدينةٍ موهوبة فيها امتلا علماً وأبدع شاعرا

وكان الشاعر الآخر الذي أحببته وتأثرت به ومازلت هو شاعر المرأة نزار قباني. فقد سحرتني كلماته الرقيقة بحق المرأة وغزله

العميق واصفاً مفاتنها بكل جرأة ومتحدثاً عن غرامياته ومغامراته، والتي كانت مثالاً لنا نحاول الاقتداء به. وكانت من أوائل قصائده التي حفظتها :

حبلى

هي كلمة عجلى أني لأشعر أنني حبلى
وصرخت كالملسوع بي كلا سنمزق الطفلى
ودفعت بالخدام يطردني في وحشة الدرب
ليقول لي مولاه ليس هنا مولاه ألف هنا
لكنه جبنا لما تاكد أني حبلى

وقصائده الأخرى المغناة من قبل العديد من الفنانين. ولكن قصيدته العصماء والجميلة والمعبرة عن احساس صادق ووصف جميل للغدر والخيانة (أيظن) تلك الأغنية التي ملأت قلوب العاشقات حسرة، وتغنى بها العرب من المحيط إلى المحيط معجبين بكلماتها وتلحينها وأدائها من قبل الفنانة نجاة الصغيرة.

الشاعر نزار قباني

لم اتمالك نفسي حين سمعت بوفاة نزار فجلست إلى طاولتي ونظمت قصيدة بحقه والمنشورة في ديواني (جمرات الغضب) وهذه بعض من أبياتها :

إلى ذكرى نزار

عسعس الحب وانطفا المشعل وأكفهرت سمانا وخبا المحفل

ذبلت زهور الياسمين تأسياً من يسقها بعده فالحب مرتحل

كم مرفأ أطفأت أنوارها خجلاً فشاعر العشق أخفى صوته الأجل

اليوم جئت أُعزّي فيك عاصمةً منحتها نبضات القلب تشتعل

دمشق يا من حضنت رمس شاعرنا نزار ابنك عن دنياه يرتحل

ابن الفراتين وابن الشام من تعب حطّا الرحال بأرضٍ كلها مقل

رعتهما وهما حيّان في وله وأغمض الجفن والأحشاء تعتمل

واطبق القبر على الرمشين في جزع يحنو برفق على ممن ناشه الطلل

كلاهما مات في منفاه مغترباً فحلان ما وقعا في حبل مبتذل

جمعت أعظم من غنّى لعالمنا أصابك في الحشى من فقدهم حلل

كنت في تلك الأيام من الزمن الجميل سكران بدون خمرة، فقد ملكني حب هجران وكانت معي في حلي وترحالي، وكنت مؤملاً أن أقضي معها أجمل سنين الحب، لكن ما حصل بعد تخرجها كان مفاجأة لم تكن في الحسبان.

كنت قد أعددت لها هدية لتخرجها وفق إمكانياتي المادية وكانت ساعة جميلة ماركة (رومر)، وكنت متشوقاً للقائها، خصوصاً وقد اشتريت لها اسطوانة للمطرب عبد الحليم حافظ (أبو عيون جريئة) وتم اللقاء، الذي انتظرته وكلي فرح وتطلع لاغتراف سعادة لم أكن

أحلم بها. تحول الفرح المنتظر إلى نقيضه من الحزن، الذي لا يلائم مناسبة تخرجها، أثارني ذلك الحزن وتوجست شراً، فقد كانت هجران باسمة دائماً منذ عرفتها فما الذي حصل يا ترى ؟ ؟

حين قدمت الهدية لها شكرتني وهي باكية، عجبت للأمر، قلت لها ما الذي حصل ياعزيزتي حتى تحولي هذه المناسبة إلى تراجيديا، فلم تجبني في البداية وكأنها تضمر في نفسها شيئاً جدياً. تركتنا قريبتها بمفردنا فاقتربت منها متسائلاً وكلي قلق وحيرة مما يدور، قالت لي بعد أن تفجرت ببكاء شديد، أنها خطبت بالأمس من قبل قريب لها، ووافق الأهل على الخطبة، ولم يتركوا لها مجالاً للاعتراض، خصوصاً وأنها أنهت سنين الدراسة، فما الذي يبقيها بدون زواج.

وقع الخبر على كصاعقة هزّت كياني، فلم أعرف ما الذي أقوله، أو أقترحه. قالت لماذا لا نهرب ونتزوج بعيداً عن الأهل فليست لديّ رغبة في الزواج من قريبي وليحدث ما يحدث، فلست معنية برأي الأهل. لم أكن أعرف بماذا أجيبها، وأنا الطالب في المرحلة الثالثة، فكيف أتزوج وأهرب، وإلى أين نهرب يا عزيزتي قلت لها، أعطني وقتاً لأفكر بالموضوع، ولكني في قرارة نفسي لم أكن مقتنعاً باقتراحها وأنا الطالب، الذي يستلم راتبه الشهري من والده فكيف بي والزواج يعني الاستقلال والعمل أو الوظيفة، ثم لماذا نهرب ونحن لم نرتكب جناية.

خرجت من ذلك اللقاء وأنا في دوامة من الأفكار والمشاعر المتناقضة. نعم كنت راغباً في الزواج بها ولكن بعد سنين وليس الآن. فكيف أتدبر أمري، وصلت بعد دوراني في شوارع بغداد إلى قرار مهم أنهي كل ما كنت أتأمله وأحلم به، الابتعاد عن هجران وهجرها وهجر سعادتي فلم أكن موفقاً في علاقاتي النسائية. ويجب على أن أتقبل المصير وإلا فلا مجال لمغامرة كالتي اقترحتها هجران.

وهكذا انتهت علاقة جميلة كنت آمل منها الكثير من الفرح والسعادة ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه. اتصلت في اليوم الثاني بصديقتنا نجاة لأخبرها بقراري الابتعاد عن هجران متمنياً لها السعادة في زواجها. ولم أرها بعد ذلك تاركاً الأمر إلى مصير مجهول يكتنف حياتي.

شرطة المرور في العهد الملكي

6

لا يمكنني وانا أتحدث عن بغداد وعلاقتي الحميمة بها. أن أمر مرور الكرام على أهم حدثين في حياتي وحياة العراق. هذان الحدثان لعبا دوراً مهماً وخطيراً في تطور الأحداث إيجاباً وسلباً في مصير العراق.

الحدث الأول والمهم بعد مرحلة السبات التي غمرت أجواء العراق السياسية نتيجة لسياسة نوري السعيد في محاربة قوى المعارضة وما أصدره من قوانين تلغي الحياة السياسية حرّم ومنع جميع الأحزاب والهيئات السياسية والنقابية، وصادر الحريات السياسية، وأمر بنزع الجنسيات عن المنتسبين لأنصار السلام والشبيبة والشيوعيين وتهجيرهم خارج القطر، وحلّ مجلس النواب، الذي صعد إلى صفوفه عشرة نواب من المعارضة، ولم يكن بينهم أيٌّ من الشيوعيين، وهاجم سجانوه وقتلوا العديد من الشيوعيين في سجن بغداد والكوت وفتح معسكرات الاعتقال للشباب والمفكرين والمثقفين العراقيين. باختصار كانت غمامة سوداء تغلّف أجواء بغداد وبقية المدن العراقية. وكنا نحن الطلبة نعمل بالسر لمحاربة حكومة نوري السعيد.

وهنا لابد لي من ذكر حقيقة تاريخية مهمة، فلولا إجراءات ذلك السياسي المخضرم وعمالته لأسياده الإنكليز، بل تخطى سياستهم

الاستعمارية، وأصبح كما يقال (ملكياً أكثر من الملك) في قمع واضطهاد شعب العراق، ولو كان قد سمح لمجلس النواب الجديد بالعمل، وأعطى بعض الحريات الديمقراطية للمواطنين والأحزاب القومية والديمقراطية، لما حصل في بلادنا ما حصل من تطورات عنيفة، ولما حصلت ثورة 14 تموز عام 1958.

ولنا في هذا المجال خير شاهد على استقرار وتطور بلد شقيق وجار، الأردن الذي تطور عبر استقرار نظامه السياسي والحياة الديمقراطية، وإن كانت تعتريها بعض النواقص، ولكن سياسة الملك حسين الحكيمة حفظت للبلد توازنه واستقراره وتطوره، بالرغم من افتقار الأردن للثروات المعدنية وتبعيته لعدد من البلدان التي تزوده بالمساعدات الاقتصادية. ومن ضمن من ساهم في بناء هذا البلد، العراق في عهد صدام حسين الذي استمر طويلاً في مد يد المساعدة الاقتصادية لنظام الملك حسين.

حرّكت العراق وايقظته من غفوته أحداث مصر بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر، بعد إنقلاب عام 1952. فقد انتهج عبد الناصر سياسة وطنية معادية للاستعمار ونهج نهجاً حيادياً، بانضمامه إلى كتلة عدم الإنحياز، وقام عبد الناصر بخطوات جبارة داخل مصر، لم تجرأ أية دولة حديثة، استقلت عن نظام الاستعمار بانتهاجها. فقد ردّ على الغرب وأمريكا، التي وعدته ببناء السد العالي وتراجعت عن ذلك للضغط على سياسة ناصر الجديدة في معادات الاستعمار.

كان رده صفعة كبيرة للغرب وأعوانه المتربصين للثورة المصرية حين قام بتأميم شركة قناة السويس، التي شكلت دولة داخل الدولة. وكانت واقعياً تدير النظام السياسي في مصر.

حرّكت عملية تأميم شركة قناة السويس الجماهير العربية في كل مكان خصوصاً إذا تذكرنا فشل التأميم الإيراني لشركة النفط الإنكليزية والحصار الذي ضربته الأساطيل الغربية على تصدير النفط المؤمم في إيران، وما تبع ذلك من إنقلاب زاهدي على حكومة مصدق الوطنية.

كان الفرح الممزوج بالخوف على مصر والثورة المصرية هو المزاج العام في العراق الخاضع لاضطهاد نظام نوري السعيد البوليسي، كانت جماهير الطلبة وهي تستعد لخوض معركة قادمة تتطلع بشغف وشوق إلى معركة مصر مع الشركات المدعومة من قبل الدول الاستعمارية. وكانت هناك معركة أخرى ضارية في الوطن العربي. تتمثل في معركة الجزائر ضد الاستعمار الفرنسي والتي حظيت بدعم كبير من العرب وبضمنهم الجماهير العراقية.

كنا نترقب ما تؤول إليه نتائج التأميم مدركين أن الغرب لن يقبل بتلك الصفعة التي وجهها عبد الناصر لعنجهيته، وكانت بوادر التآمر على مصر تبدو واضحة في مجلس الأمن وأجتماعات ممثلي الدول الاستعمارية للرد على مصر والتآمر على ثورتها بقيادة عبد الناصر.

كنا في الوسط الطلابي نقوم بنشاطات مختلفة لدعم الثورة الجزائرية والوقوف إلى جانب مصر في كفاحها ضد الدول الاستعمارية. فكم من مرة تجمعنا في نادي كلية الحقوق وطالبنا بدعم مصر والثورة الجزائرية وسقوط حكومة نوري السعيد. متحدين الإجراءات البوليسية والرقابة من قبل وكلاء التحقيقات الجنائية. وكنا نعمل جادين من أجل كسر نطاق الخوف الذي شل النشاط السياسي بعد الإجراءات التعسفية من قبل حكومة نوري السعيد كإسقاط الجنسية وحظر نشاط الجمعيات الجماهيرية والنقابات والأحزاب السياسية، وبالفعل استطعنا أن نهيأ ونحضر جماهير الطلاب للمعركة القادمة لعملنا وتنبئنا بقرب المعركة القادمة مع حكومة نوري السعيد المتعاونة مع الاستعمار الانكليزي. وكنا نستعد للتظاهر والقيام بانتفاضة جديدة ضد الحكومة الرجعية بعد خمود الحركة الوطنية نتيجة سجن وقتل العديد من المناضلين الشيوعيين في سجون الطاغية، ومعسكرات الاعتقال للمثقفين من أساتذة ومهندسين وطلاب في معسكر السعدية لشل الحركة الجماهيرية المطالبة بإسقاط الحكومة.

كنا نحن الطلبة اليساريين في كلية الحقوق نقوم بالتفاوض مع الحركات القومية في الكلية من أجل التهيأة للمعركة القادمة وكنا نحاول تجميع قوانا الممثلة لليسار والقوميين من بعثيين واستقلاليين ومع ممثلي الحركة الكردية لتكوين تجمع وطني يضم صفوف الشعب في جبهة وطنية تقود النضال الجماهيري.

وحصل ذلك حين توحدت قوانا في المظاهرات العارمة التي خرجت بعد العدوان الثلاثي على مصر الشقيقة، والتي هزّت وأشعلت نيران الانتفاضة ليس في العراق فحسب، بل في العديد من البلدان العربية، وكانت تلك هي المرحلة المهمة في نهوض حركة التحرير العربية في البلدان الخاضعة للاستعمارين الفرنسي والإنكليزي.

خرجت الجماهير العربية منددة بالاستعماريين المعتدين على مصر من (المحيط الهادي إلى الخليج الثائر) وكانت تلك النهضة الكبيرة للعرب هي البداية المهمة لسقوط الكيانات الاستعمارية في بلداننا العربية، وهي نتيجة مهمة وكبيرة من نتائج ما قام به جمال عبد الناصر من خطوات وطنية تمثلت في تأميم شركة القناة، وانضمام مصرإلى حركة الحياد، وشراء الأسلحة من جيكوسلوفاكيا وكسر احتكار السلاح، والتوجه إلى الإتحاد السوفيتي لتمويل بناء السد العالي.

كانت اجتماعاتنا في خريف عام 1956 مستمرة نحن الطلبة اليساريين مع ممثلي التكتلات القومية لتوحيد قوانا، وحين بدأ العدوان، انطلقت جماهير طلابنا بقيادة ممثلينا من شيوعيين وبعثيين وديمقراطيين وقوميين. وكنا متوجهين نحو كلية دار المعلمين العالية ذات الجماهير الطلابية الكبيرة، توحدنا معهم وسرنا نحو كلية التجارة، فتجمع الطلاب بالآلاف وهم يهتفون بحياة عبد

الناصر، وانتصار الثورة المصرية، وسقوط حكومة نوري السعيد الممالئة للاستعمار، وتوجهنا نحو باب المعظم عازمين على التظاهر في شارع الرشيد، فجابهتنا قوات من الشرطة وأطلقت علينا الرصاص الحي، فقتل أحد الطلاب البعثيين (ناجي) وجرح العديد، واضطرت الجماهير إلى التفرق فذهب قسم منا إلى كلية الهندسة للانضمام إلى الطلبة المتجمعين فيها، والقسم الآخر تفرق في الطرقات القريبة من باب المعظم. وكان طلبة الكلية الطبية مع طلاب كلية الصيدلة وطب الأسنان يتظاهرون متوجهين إلى باب المعظم، لكن رصاص شرطة نوري السعيد أعادهم إلى كلياتهم .

وكان هناك تظاهرة أخرى تحركت من قرب سوق الصفارين بقيادة الشيوعيين، والتي جوبهت بنفس إجراءات القمع واستخدام الرصاص الحي، حيث سقط صريعاً في تلك المظاهرة الشهيد عواد الصفار.

كانت انتفاضة بامتياز في الكثير من المدن العراقية، وبالأخص في بغداد والنجف، فقد استمرت المظاهرات وإضراب السوق الكبير في مدينة النجف أسابيع طويلة بعد اغتيال الشرطة لشابين من عائلة (الدجيلي، وشيخ راضي). وقد ساهمنا أنا وأصدقائي بعد صدور أمر إغلاق الكليات في بغداد، بتلك المظاهرات، وكان للمرأة دور كبير ومميز في المشاركة بمظاهرات النجف.

كما لعب المجتهد الكبير الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء دوراً

مهماً في دعم الانتفاضة ضد الحكومة الرجعية في بياناته وخطاباته، وبقيت جذوة الانتفاضة مشتعلة في مدينتنا بالرغم من انتهاء العدوان الثلاثي. فقد أشعل العدوان نيران الثورة بين أبناء المدينة الثائرة دوماً ضد الاستعمار والرجعية .

كان موقف الحكومة مخزياً إزاء العدوان الثلاثي، فقد توقفت الإذاعة عن بث أخبار المجازر التي ارتكبتها دول العدوان ضد الشعب المصري بأوامر من رئيس الوزراء نوري السعيد، ولن ينسى العراقيون خطاب (نوري باشا) ذلك الخطاب الملئ بالتهجم على شخص عبد الناصر والثورة المصرية وتمجيد حلف بغداد والدول الاستعمارية، شاتماً الأحزاب الوطنية العراقية وفي مقدمتها الحزب الشيوعي، الذي كان يتهمه دائماً بالعمالة لموسكو. وأنهى خطبته بأهزوجة على الطريقة العراقية الريفية (دار السيد مأمونة)، ولكن لم يمض على ذلك الخطاب سوى سنتين حتى قامت الثورة وقتل (الباشا)، فأين الأمان الذي أعلنه نوري السعيد. وبهذه المناسبة كنت ولازلت ضد العنف السياسي والجسدي في ممارسات العمل السياسي، وما ارتكبته وترتكبه الجماهير المنتسبة لمختلف الأحزاب اليمينية واليسارية. وما نشاهده اليوم ماهو إلا امتداد لذلك العنف، الذي غطى الساحة العراقية منذ ثورة تموز وحتى الوقت الحاضر. فقد شهدت الساحة العراقية جرائم بشعة بحق المعارضين لمن تولى الحكم في مختلف الأدوار منذ عام 1958.

وهناك ملاحظة لابد ان أقولها بشأن من يحاول يزكي النظام الملكي ويضفي أنواع النعوت الطيبة على نوري السعيد ويحاول تبرأته من الجرائم التي ارتكبت في عهده، محاولين تبييض صفحته، واعتباره من أساطين الوطنية العراقية مهاجمين عنف الجماهير التي ارتكبت خطأ كبيراً في التجاوز على رمسه وسحله في شوارع بغداد. ولكني أذكر هؤلاء بأن النظام هو من بدأ بالإعدامات بعد ثورة عام 1941. فقد أصر عبد الإله ونوري السعيد على إعدام العقداء الأربعة. والتي أورثت الجماهير العراقية الثائرة حقداً استمر بالتوهج حتى ثورة تموز التي ارتكبت فيها جرائم بشعة بحق أعوان النظام الملكي، ولكن البادي أظلم.

ولن ينس العراقيون الإعدامات لقادة الحزب الشيوعي العراقي (فهد، صارم، حازم) الذين اختطفوا من بين رفاقهم من السجون العراقية ليعلقوا على مشانق النظام الرجعي في ساحات بغداد بدون أن يستحقوا مثل ذلك العقاب.

يوسف سلمان – فهد

كانت انتفاضة عام 1956 إنعطافة كبيرة في حركة الجماهير العربية والعراقية. فقد أيقظت العراقيين من سبات امتد طويلاً.

أتذكر جيداً الجو الأخواني الذي ساد بعد المظاهرات في كلية الحقوق بين ممثلي

مختلف القوى اليسارية والقومية. خصوصاً عندما علمنا بأن حكومة نوري السعيد قامت بفصل العديد من أساتذتنا (عبد الرحمن البزاز، اسماعيل مرزة، عباس الصراف، مصطفى كامل ياسين) وشمل الفصل أساتذة آخرين في دار المعلمين العالية، والآداب وغيرها من بقية الكليات.

حدث ذلك عندما عمد الأساتذة الوطنيون إلى تقديم مضبطة للوصي عبد الإله يطلبون فيها مساندة مصر وشعبها في الحرب ضد دول العدوان الثلاثي، كما استنكروا موقف الحكومة الشامت بشعب وحكومة مصر ورئيسها عبد الناصر.

كان جواب الحكومة فصل أولئك الأساتذة وتوقيفهم كما لجأت إلى توقيف المئات من المثقفين، مهندسين، أطباء، أساتذة، وكبار الأعضاء في الأحزاب العراقية، ومنتسبي تلك الأحزاب في معسكر (أبو غريب). وقامت بمطاردة الوطنيين في المدن العراقية الأخرى لإيقاف المد الثوري الذي انطلق بعد أحداث قناة السويس عام 1956.

كانت لقاءاتنا مع البعثيين والقوميين في كلية الحقوق مستمرة بهدف توحيد قوانا وجهودنا ورص الصفوف لإسقاط حكومة السعيد. وكان تفكيرنا ينصب على إقامة جبهة وطنية واسعة من الأحزاب العراقية الوطنية، ومن النشاطات المهمة التي قمنا بها من أجل لملمة صفوفنا ورصها القيام بسفرة مشتركة بين اليساريين

والبعثيين والقوميين. وكنت ممثلاً لاتحاد الطلبة في التفاوض مع البعث حول تلك السفرة المشتركة وكان ممثل البعثيين الأردني فيصل زريقات، وتمت المفاوضات في دار صديقنا عبد الأمير العبود.

كانت مباحثاتنا تنصب على البرنامج من قبل مختلف الأطراف على أن يكون جوهرها دعم التوجهات لإقامة الجبهة الوطنية وفعلاً تمت السفرة بنجاح إلى (أبو غريب) وكان الحضور كثيفاً من قبل طلاب الكلية المستبشرون بولادة تكتل جديد بين الأطراف الوطنية يسعى لجبهة وطنية لإنقاذ العراق.

كانت تلك السفرة والحفلة التي أردنا إقامتها بعدها هي الثمرة الأولى والمهمة لمعركتنا في عام 1956 ضد حكومة السعيد، واستمرت الجهود واللقاءات بيننا وبين ممثلي البعث، فاتك الصافي، زكي الخشالي، محسن الضاري، تحسين برواري، باسل مصطفى ثروت، وكانت الأيام التي تلت معركتنا عام 1956 تبشر بقرب انبثاق جبهة الاتحاد الوطني، التي لعب الطلاب ونحن منهم دوراً كبيراً في انبثاقها وتعزيزها والمساهمة في نشاطاتها، والتي كان من أهم ما أفرزته ثورة تموز 1958، وكان لنا رفاق في مدينة النجف يعملون لخلق الجبهة الوطنية بين مختلف الأطراف. ومن الأشخاص الذين ساهموا بهذا الجهد، المحامي أحمد الحبوبي، الشيخ أحمد الجزائري عن حزب الاستقلال، محمد حسن مبارك عن الحزب الشيوعي، عبد علي الشيخ راضي عن حزب البعث، عبد الإله النصراوي عن القوميين

العرب. وكانت النجف على الدوام مركزاً وطنياً وثورياً عمل طيلة سنوات من أجل إنجاح التكتل الوطني في جبهة رصينة، وكانت المدينة تتميز بمظاهراتها المستمرة بالمناسبات الوطنية في ذكرى ثورات العراق، ثورة العشرين وانتفاضات 1948 و1952 وغيرها من المناسبات التأريخية المهمة. والغرض حشد الجماهير وديمومة روحها الثورية.

مر عام 1957 هادئاً وكنا نعمل في السر لتقويض أسس الحكم الرجعي، لكن أجهزة الأمن كانت لنا بالمرصاد في الكلية وخارجها، وأذكر أن عميد الكلية وكالة (طه البشير) بعث يستدعينا لمحادثة خاصة. وحينها أنذرنا أنا وتحسين برواري وباسل مصطفى ثروت وخالد البياتي بأننا نقوم بنشاط شيوعي والحكومة تعلم بذلك النشاط ويجب علينا الإنصراف إلى دراستنا، وإلا فالفصل والسجن في انتظارنا.

كان العراق يغلي في تلك الأيام وهو يستعد للنهوض بعد تكوين جبهة الاتحاد الوطني من الحزب الشيوعي، الاستقلال، الوطني الديمقراطي، حزب البعث. ولم يوافق حزب الاستقلال على دخول الحزب الديمقراطي الكردستاني في صفوف الجبهة، واقتصر الأمر على التعاون بين الشيوعي والكردستاني في النضال والعمل الوطني.

ولا بد لي من التأكيد على حقيقة تأريخية ناصعة، وهي أننا نحن الطلاب من مختلف الاتجاهات عملنا بجهد وإخلاص من أجل

جبهة الاتحاد الوطني، والتي تلقفها ناضجة عبر جهودنا زعماء الأحزاب المذكورة.

حلّ عام 1958 كعاصفة غيرت الكثير في حياتي وحياة العراقيين أحداث كبيرة هزت جذور المجتمع العراقي عبر إنقلاب في تموز تحول بدعم الجماهير الكبيرة إلى ثورة عارمة أطاحت بالنظام السياسي الملكي. وقلعت النظام الإقطاعي من جذوره المتعفنة. وتلاحقت إيجابيات الثورة كما صاحبتها العديد من السلبيات التي أطاحت بمفجريها من العسكريين ومن معهم من السياسيين.

قبل ميلاد الثورة بشهور كنا منشغلين في اتحاد الطلبة بالتحضير للاحتفال بمرور عشر سنوات على تأسيس الاتحاد، الذي انبثق في مؤتمر السباع في نيسان عام 1948، كنت أحد الناشطين بفعالية في مسيرة تلك التحضيرات فقد تحولت داري إلى مكان لطبع بوستر صورة لإمرأة تحمل مشعل الحرية، وكان جلال وعبد الرزاق الصافي معي في تحميض وطبع المئات من تلك الصور.عدا ذلك كنا نجتمع أسبوعياً أحياناً مع ممثلي الكليات (لجنة الكليات) للتحضير للمهرجان الكبير الذي كنا عازمين على إقامته في نيسان بهذه المناسبة، ولا زلت أذكر بحب بعض الأعضاء من تلك اللجنة، فوزي البياتي، وعادل القاضي، كنت ولا زلت أكن لهم المودة والاحترام، ولكن أين هم ؟ فقد تفرق شملنا جميعاً بعد الأحداث التي هزّت كيان المجتمع العراقي، فالأخ فوزي في الإمارات يقضي أيامه الأخيرة، والدكتور عادل القاضي في كندا مع عائلته.

كنت خلال السنوات 56- 58 في غاية النشاط والفعالية مما جعل التحقيقات الجنائية تكثف المراقبة على تحركاتي في الكلية وخارجها. ولم أكن مقدراً لما ينتظرني من نتائج ترتبت على تلك المراقبة.

كنا نتهيأ لتلك المناسبة وأذكر جيداً كيف كنا نخرج مع بعض الزملاء إلى بساتين الكرادة التي تقع بعد ساحة الحرية، فقد كانت بغداد تعج بالبساتين الغابوية. كنا نختبأ بين الأشجار الكثيفة لترديد الأناشيد الثورية لإلقائها في يوم المهرجان.

أحدى المناطق الريفية

وعندما حل ذلك اليوم وكانت جماهير الطلاب في أتم الاستعداد للاشتراك بسفرة إلى سلمان باك لإحياء الاحتفال، وقبل التوجه من كليتنا (الحقوق) فوجئت بسيارة تقف إلى جانبي وفوزي البياتي يناديني ليخبرني بأن التجمع للحفل قد كشفته التحقيقات الجنائية، وبناء على تلك المعلومات وخوفاً مما يمكن ان ترتكبه الشرطة ورجال الأمن بحق الطلبة، قررنا أن تتوجه كل واحدة من الكليات إلى مكان خاص بها دون أن يحصل التجمع الكبير.

ذهبنا بالباصات المعدة لنا إلى بساتين الفلوجة وقمنا بالاحتفال هناك لوحدنا . وكانت الأهازيج الوطنية والأغاني تهز نخيل الفلوجة. ولم نكن نشعر بتسلل أفراد من التحقيقات الجنائية إلى صفوفنا وتصوير الاحتفال بخذافيره، وقد علمت بذلك وشاهدت الصور عندما أوقفوني في دائرة التحقيقات.

بالرغم من أن الاحتفال بتلك المناسبة المهمة في تأريخ الحركة الطلابية جاءت منفردة أي أن كل كلية توجهت إلى إحدى ضواحي بغداد للقيام بالاحتفال منفردة لكننا نجحنا في إحياء تلك الذكرى الكبيرة. وعززنا مكانة اتحادنا لدى الجماهير الطلابية الملتفة حولنا .

لم أكن أعلم أنني سوف أكون الضحية الوحيدة التي شخصتها دائرة التحقيقات الجنائية. فلم تمضي أياماً قليلة حتى فوجئت في أحد أيام نيسان بأحد أبناء عمومتي (محمد) في الصباح الباكر لينذرني بأن الأمن داهموا دارهم لإلقاء القبض على حكمت محمد حسين ومن حسن الصدف أن اسم ذلك القريب كان مطابقاً لاسم والدي، فلم ينجحوا بالقبض علي، وكان لذلك التحذير أثره المهم، فقد نقلت مع بعض الزملاء جميع المنشورات والصور والكتب الممنوعة والتي كانت تشكل دليلاً قاطعاً في المحكمة على نشاطي اليساري.

ذهبت في نفس اليوم لإخبار المسؤول المباشر عبد الرزاق الصافي عن صدور أمر إلقاء القبض علي، وطلبت منهم أن يشير علي

ما الذي سوف أعمله ؟ وأين سوف أختبأ ؟ فكان جوابه في منتهى البرود (ضيع وجهك) بعض الوقت حتى ينساك الأمن وتعود لحياتك الطبيعية. لم يعرض على الاختباء في البيوت السرية التي يعرفها ويعيش فيها الكثير من المحترفين اليساريين. كان لهذا الجواب أثر صادم جعلني أتفكر بما ينتظرني. وكيف يعمل الرفاق المناضلون ؟ ولماذا لم يساعدني في التخفي وخطر التوقيف والتعذيب وما يليه من نتائج تنتظرني.

هربت إلى مدينة النجف وبقيت مختفياً حتى إلغاء أمر القبض على الهارب حكمت شبر. تم تسليمي إلى أمن بغداد ومرت الأيام ثقيلة تخللها الكثير من الاستجوابات مصحوبة بما يعمله في هذه الحالة رجال التحقيق القساة. ولكني لم أفه أو أعترف بأية كلمة، وكانوا بعد ان عجزوا عن إرغامي على الاعتراف متصورين أن قيادة الاتحاد الشيوعي تتمثل في شخصي بعد ورود التقارير الكبيرة إلى مركز الأمن.

وكانوا يصرون على تقديم البراءة من الحزب الشيوعي ولكني لم أكن آنذاك عضواً بالحزب، فكنت أقول لهم، كيف أتبرأ من حزب لم أنتمي إليه !!

عجزوا عن أخذ تلك الورقة التي تسربل المناضل بالعار، وفي أحد الأيام جاء صديق العائلة (أنور ثامر) المسؤول الأول في أمن الفرات الأوسط ليخرجني من التحقيقات الجنائية محفوظ الكرامة.

وكان رفيق توفيق مدير أمن بغداد محتاراً كيف سيطلق سراحي وأنا لم أدلي بأي أعتراف أو أقدّم ورقة البراءة.

لم انسى موقف الصديق الراحل أنور ثامر وما قدمه لي وللعائلة، وأذكر جيداً مقدمه بعد ثورة تموز إلى داري طالباً مني الشهادة أمام محكمة الشعب، الذي كان سيقدم لها لمحاكمته فتذكرت ما فعله لإخراجي من سراديب التحقيقات الجنائية. أجبته بكل سرور سوف أقف وأشهد أنك كنت صديقاً أخرج متهماً بالشيوعية من براثن رجال الأمن، ولكن المحاكمة لم تتم بعد أن تراجع قاسم في عام 1959 عن مواقفه (الثورية) كما كانوا يصفونه.

استيقظنا في فجر الرابع عشر من تموز 1958 على صوت الراديو ينادي أهل بغداد بالخروج للمساهمة في الثورة. لم نكن في البداية نصدق ماقاله الراديو، فالثورة تعتبر في تلك الأيام معجزة كبيرة نظراً لظروف البلد المعوّق بإجراءات أمنية شديدة. ولكن زمجرة الجماهير أخذت تتصاعد ووصلت إلى حينا في الكرادة. فخرجنا كالمجانين إلى الشوارع في ذلك اليوم الخالد والكبير. الذي غيّر الكثير من القيم وتسبب فيما بعد بالكوارث الكبيرة بالرغم مما أشاعته الثورة في بدايتها من أجواء مفرحة بتغييرات عميقة لأبناء الشعب العراقي .

تفجّر البركان العراقي دماً وانطلق العنف بكل طاقاته في ذلك اليوم. وكانت الجماهير في حالة جنون وغليان تطالب بالثأر من رجال

الحكومة. مئات الآلاف من المواطنين الذين انطلقوا من مناطق بغداد المختلفة يهزجون بهتافات الثورة والانتقام من طغمة نوري السعيد ورجالاته. ولم يكن هنالك مجال للعقل والتعقل في لجم الاندفاع الجنوني لتلك النيران المنطلقة من جوف العراقيين وهم في اندفاعة لم نشاهدها في مختلف الانتفاضات السابقة. كانوا يتراكضون نحو دور الحكومة والقصر الملكي لنهبها والظفر برجالات الحكم وقتلهم. وكانت تلك الاندفاعة أولى الخطوات العنيفة التي تصاعدت بنيرانها واستمرت حتى الوقت الحاضر.

تظاهرة مؤيدة للثورة

مسروقات القصر الملكي 1958

ظفر المتظاهرون الثائرون ببعض من أعضاء الحكم في فندق بغداد من الوزراء الأردنيين فقتلوهم وسحلوا جثثهم كما ظفروا بجثة

عبد الإله الوصي على عرش العراق والمتسبب الرئيسي في إعدامات العقداء الأربعة وزعماء الحزب الشيوعي وقطعوا جثته إرباً إرباً. كما سحلوا جثة نوري السعيد في اليوم الثاني للثورة.

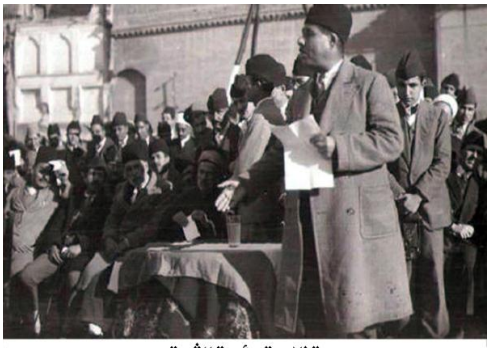
تظاهرة مؤيدة للثورة

كنت وما زلت أتساءل أين كان ذلك الحقد وطلب الثأر كامناً في نفوس العراقيين الذين تحولوا إلى بركان يتفجر غضباً وينز دماً ليطالب بالفتك بخصوم الشعب من حكام رجعيين واستمر العنف والقتل والسحل والتمثيل بجثث الخصوم السياسيين منذ عام 1958 في ثورة تموز وعبر مجازر الموصل وكركوك ومجازر 8 شباط 1963، واستمر العنف بالتصاعد، ولم نسلم منه حتى الوقت الحاضر. فقد ازداد سعيره في زمن حكم البعث بقيادة صدام حسين الذي قتل جميع معارضيه من السياسيين وتسبب بمجازر رهيبة في حروب لا ناقة لنا بها ولا جمل، ضد الجارة إيران واحتلال الكويت ومقاتلة الكرد. وضرب الشيعة في انتفاضة آذار 1991 ومئات آلاف القتلى الذين سقطوا ضحايا ذلك العنف المتفجر في صدور الحكام في مختلف مراحل الحكم التي مرت منذ تموز 1958.

وها هو العنف يطل علينا بعد احتلال امريكا لبلدنا وكيف أثارت نوازعه جيوش الاحتلال لدى الشارع الغوغائي وكيف استطاع المحتلون أن يطلقوا كوامن الحقد بقتال عنيف ومدمر لنسيج المجتمع العراقي بين الأخوة السنة والشيعة منذ دخولهم البلد وحتى كتابة هذه السطور. ومازاد الطين بلّة دخول داعش العراق واحتلال أجزاء ومدن منه وما تسببوا به من مجازر وإبادة للعراقيين بمختلف طوائفهم ولا أعلم متى تنطفئ نيران هذا العنف الرهيب الذي دمّر المجتمع العراقي وفتت عناصره المتآخية سابقاً.

وها أنذا على مشارف الثمانين وقد ذقت لوعات الأحداث الدامية التي مرت بعراقنا الحبيب فكتبتُ هذه الأبيات أناجي نفسي والزمن والأحباب قائلاً :

بقايا جسدٍ حيٍ وروحٌ طالها اللهب
وإنسان معنىّ ليس في أجوائه شهُب
مضت أيامه لم يبق لا حبٌ ولا طرب
وها نحن نعيش مرارة الأيام يعلو روحنا الكرب
أطلّ الموت من غازٍ أتى للعمر يستلب
فدمّر كل ماٍفي أرضنا حياً أصاب قلوبنا الجدب
فحوّل أرضنا قفراً ونوق البيد تنتحب
وأقسى ما يمرّ بنا فراقٌ جائر صعب

تفرقّ خير أحبابي وحلّ بقلبي السغب
وهاجر كل من أحببتُ ناش بيوتنا العطب
فأين مرابع الخلاّن كان يدور في جنباتها صخب
وأين مرابع الأحفاد بات مقامها خرب
أعيش بغربة ثكلى وقلبي صار مكتئب

بعد أكثر من خمسين عاماً على ثورة تموز أكتب في هذه السيرة بعض الملاحظات بشأن الثورة وزعيمها، بعد أن تبلورت أفكاري عبر تجارب وعمر طويل قضيته مراقباً ومشاركاً في أحداث بلادي. حين وصل وعيي ونضوجي أعلى مراحله. وأستطيع بكل تواضع أن أقول رأي بدون تعصب سواء كان ذلك بالمدح الكثير للثورة وزعيمها أو العكس باتهام ثورة تموز وزعيمها عبد الكريم قاسم بالعمالة.

لقد حزّ في نفسي وآلمني كثيراً أن أجد رجلاً قومياً مارس السياسة والعمل الصحفي في عهد العارفين (عبد السلام وعبد الرحمن عارف) أن يتهم بعد خمسين عاماً من ثورة تموز زعيمها وبعض وزراءه بالتعاون مع الإنكليز لكأن الثورة قامت بمساعدة الإنكليز وسوف تحافظ على نفوذ بريطانيا ومصالحها النفطية في العراق.

جاء في كتاب الأستاذ ورئيس الصحافيين العراقيين والقومي العراقي المعروف فيصل الحسون في كتابه، (شهادات في هوامش التأريخ) الصادر عام 2001 ما يلي :

شاهدت خلال الدعوة التي أقامها رجل المخابرات البريطاني في السفارة البريطانية (مستر فول)، السادة محمد حديد، حسين جميل، نجيب الصائغ، خدوري خدوري، والدكتور المهندس محمد مكية والدكتور الطبيب محمود الهاشمي وسامي باش عالم وغيرهم. وهنا يغمز الكاتب وزراء وسياسيي التيار الديمقراطي واليساري في العراق قائلاً : عندما دخلت الصالون الصغير رحب بي صاحب الدعوة.

لاحظت أن الارتباك بدا واضحاً على وجهي حسين جميل ونجيب الصائغ اللذين فوجئا – كما بدا لي - والقول للكاتب، بحضوري كان امراً غير مستحب لبعض المدعوين على الأقل.

سمعت أكثر من مرة في هذه الدعوة مقولة أطلقها المدعوون دون حرجٍ أو تردد : (ليس بيننا وبين بريطانيا إلا نوري السعيد ... وحين يتخلى الإنكليز عن سياستهم في دعم االنظام والحكام في العراق فلا يعود بيننا وبينهم ما يوجب النفرة والخصام).

كان الموقف غريباً... فكيف التقى زعماء المعارضة ووجهها اليساري وغيرهم في منزل هذا الرجل.

وحين تطورت الحوادث وقفز حسين جميل وخدوري خدوري ونجيب الصائغ إلى مراكز الصدارة، وراح أقطاب (التقدمية) و (الديمقراطية) يلمعون كما كان يلمع من قبل توفيق السويدي وعلي جودت سليمان الأيوبي وعبد الوهاب مرجان وضياء جعفر.

وحين صبّ عبد الكريم قاسم جام حقده على دعاة القومية العربية ولم يستهدف في سياسته إلا القضاء على مسيرة الركب القومي... ليتاح للإنكليز ليطمئنوا على مصالحهم فلا يتهددها خطر أو تتعرض لمكروه.

وفهمت كذلك لماذا تربع (التقدميون) و(الديمقراطيون) على دست الحكم مشاركين فيه عهد الدكتاتور عبد الكريم قاسم. وأدركت (بعد لأي) لماذا وكيف انحرفت ثورة 14 تموز عن أهدافها القومية... ومنذ متى خُطط لهذا الإنحراف [2].

ولا يمكن أن أكتب عن الثورة وأنا في هذا الإدراك متناسياً ما كنت فيه في خمسينيات القرن العشرين، ما كان عليه رجال الثورة من حيث محدودية الإدراك والوعي وفقاً للظروف والأحوال السائدة آنذاك.

كنت بيدقاً من ضمن البيادق الكثيرة التي تحركها قيادات هي أيضاً بيادق تُؤمر من قبل زعماء وحركات خارجية. وهذا هو ديدن الحركات السياسية في العراق حتى الوقت الحاضر. فلا مبادرات وطنية لخدمة البلد ولملمة الصفوف وبناء وطن حر قوي يتمتع بالمكانة اللائقة بين الدول.

---

(2) أنظر ، فيصل حسون ، شهادات في هوامش التأريخ – بيروت – الوراق عام 2001 ص 48– 51

كنت كما كانت الغالبية العظمى من اليسار واليمين القومي تتلقى من قياداتنا المرتبطة بالخارج فالشيوعيون كانوا يتلقون أوامرهم من الحزب الشيوعي السوفيتي. والبعثيون كانوا لايختلفون بهذا الشأن فكانوا يؤمرون من قيادات مرتبطة بميشيل عفلق المشكوك بولائه القومي، أو عبد الناصر خصوصاً بعد الوحدة.

لم نكن نمحص ما يردنا من أوامر للقيام بمظاهر مؤيدة أو معارضة للحكم آنذاك من منطلق مركزي - نفّذ ثم ناقش - وهذا المبدأ هو من أسوأ المبادئ التي تتبناها الأحزاب الشمولية (التوليتارية). فهذا المبدأ يجمّد عقل ووعي المرتبطين بتلك الأحزاب. فكم مرة خدعنا بالخروج للتظاهر أو التواجد في الشوارع لوجود (مؤامرة قومية رجعية).

تظاهرة في بغداد مؤيدة لقاسم

لكن تلك المزاعم سرعان مابانت حقيقتها وكم مرة جاءتنا توجيهات

بالاعتداء أو بمراقبة القوى القومية والبعثية بدون أن نفكّر بأن هؤلاء هم أهلنا وأخواننا وأصدقائنا الذين توحدنا معهم في عان 1956 في مظاهرات عارمة، وبعدها بجبهة وطنية وحدّت كل القوى المناضلة في سبيل العراق. فكيف انقلبت الأمور وأصبحوا أعداءنا نرمي إلى تذييلهم بل قتلهم وسجنهم. كيف تجمدّ وعينا وإدراكنا وكنا كما قلت بيادق ننفذ ما يطلب منا، كما كانوا هم الآخرون بيادق ينفذون ما يطلب منهم، وكنا نريد فرض أيديولوجيتنا على الأخرين بدون وعي، فلم نكن نؤمن بوجود الرأي الآخر واحترام خصومنا السياسيين. وهذه هي علة العلل التي نخرت وأربكت عمل اليسار بقيادة الحزب الشيوعي.

ما الذي حصل بعد توحيد القوى في جبهة وطنية موحدة ؟ لا بد لي من توضيح بعض الظروف التي أحاطت بثورة تموز وبالعراق آنذاك، والتي تسببت في بعض جوانبها في بث الفرقة بين القوى اليسارية والقومية. بالرغم من إيمان الشيوعيين والبعثيين بتكوين دولة علمانية اشتراكية، يعيش من خيراتها ملايين البؤساء والمعدمين. فكيف تفرّق شمل هذه الجبهة والجماهير المؤيدة والمساندة لها .

كان لقيام الوحدة بين مصر وسورية في شباط 1958 أثر كبير ومباشر على التعاون والتعاضد بين قوانا اليسارية والقومية .

لم تكن الوحدة بين مصر وسورية بالطريقة التي نشأت بها صحيحة ومكتملة الظروف والوسائل لديمومتها ومساندة جميع

القوى العربية والوطنية لها. وكانت كما رآها اليسار في العراق وسورية ومصر موجهة لضرب الحزب الشيوعي السوري والشيوعيين المصريين عن طريق إلغاء الأحزاب وإعلان حزب واحد هو الاتحاد الأشتراكي، وبعد ذلك بدأت مطاردة اليساريين والشيوعيين في كل من مصر وسورية. وهذا العامل لعب دوراً رئيسياً في فرقة المتحالفين من القوى القومية واليسارية ولا غرابة أن أطلقت شعارات أيديولوجية المعنى والمغزى بعد ثورة تموز. فقد طالب اليسار بقيادة الحزب الشيوعي بعلاقة فدرالية مع الجمهورية العربية المتحدة. وكان المفهوم من هذا الشعار إرجاء الوحدة مع مصر التي بانت مراميها بقيادة عبد الناصر الزعيم العربي الذي أحببناه كثيراً لإنجازاته الوطنية والقومية. لكن ما قام به من وحدة دبرت على عجل مع سورية وما تلاها من إجراءات لمطاردة الوطنيين واليساريين لعبت الدور الكبير في ابتعاد اليسار العراقي عن المطالبة بالوحدة.

وكانت القوى القومية وحزب البعث تطالب بالوحدة العربية الفورية. وهنا حصلت الفرقة وبدأ الصدام بين القوى التي تفرقت لأسباب أخرى عدا موضوع الوحدة والاتحاد الفدرالي. وكنا في ذلك الوقت مندفعون بدون وعي لمعارك مع أخواننا وحلفاءنا في الجبهة الوطنية بدون إدراك أو وعي للمخاطر التي أحاطت بالثورة وأودت بها أخيراً وكان الخصام واضحاً بين زعيمي الإنقلاب قاسم وعارف

ولم نعي آنذاك أن ذلك الخصام لم يكن بسبب المنادات بالوحدة أو الاتحاد، بل كان صراعاً مكشوفاً، بدون أن نعي ذلك، على السلطة، والحكم بين القائدين للإنقلاب. وبانت حقيقة ذلك بعد انقلاب 8 شباط 1963 بقيادة البعث ومشاركة جميع القوى القومية بالجيش وخارجه. عندما تخلّى الإنقلابيون ومن بعدهم العارفان (عبد السلام وعبد الرحمن) عن توجهاتهم وشعاراتهم السابقة بالوحدة الفورية مع مصر.

كانت الثورة أمل العراقيين المحرومين من الحرية. وكنت أحد هؤلاء الذين حلموا قبل الثورة بعالم جديد يؤمن بحرية الفرد وحقوق الإنسان. بعد السنوات الطويلة من المطاردة والاضطهاد السياسي، خصوصاً بعد أن خرجت من التوقيف قبل شهور عديدة. فقد كانت فرحتي لا يمكن وصفها بالثورة الشعبية التي سوف تحقق طموحاتنا وآمالنا بالحرية والعيش الكريم واحتلال المكان اللائق بدولتنا الجديدة بعد تحطيم حلف بغداد والعائق لتقدمنا والموجه ضد الاتحاد السوفيتي والكتلة الاشتراكية.

ولا بد لي هنا من تقييم ما حصل من إنجازات كبيرة في زمن الثورة وتقييم قيادة قاسم بشكل موضوعي وعادل وتبيان إيجابيات الحكم وسلبياته وخصوصاً قيادة عبد الكريم قاسم.

بدأت حركة الجيش العراقي في 14 تموز 1958 كإنقلاب عسكري وسرعان ما تحولت إلى ثورة تدعمها الجماهير الشعبية،

فقد تم تحقيق إنجازات كبيرة لمصلحة الشعب لا يمكن أن يجادل أي إنسان موضوعي بأهميتها.

ثورة تموز 1958

كان من أوائل تلك الإنجازات إصدار قانون الإصلاح الزراعي الذي جاء ليقصم ظهر الطبقة الإقطاعية ويقضي على نفوذها، بعد توزيع الأراضي الزراعية بين الفلاحين. ولا أنكر ما حصل من أخطاء في تطبيق القانون، إلا أنه كان موجهاً لضرب أهم القوى التي تساند الحكم الملكي والسعيدي ورهطه من الرجال المنتفعين وبضمنهم كبار رجال الإقطاع.

كما صدر قانون الجمعيات الفلاحية التعاونية لدعم نضال الفلاحين ومساعدتهم في الاستفادة من تطبيق القانون. ولكن سرعان ما دب الشقاق بين حلفاء الأمس وتصاعدت حدة الصراعات بين الأطراف الوطنية للسيطرة على الجمعيات الفلاحية

ولم تدم تلك الصراعات طويلاً حتى انهارت البنية التحتية لتلك الجمعيات بالضربات الموجهة من قبل حكومة قاسم ضدها.

ومن الإنجازات المهمة لثورة تموز إصدار قانون الأحوال الشخصية، الذي ساوى بالميراث بين المرأة والرجل، ودعم نضال المرأة في سبيل حقوقها المهضومة في ظل الحكومات الرجعية السابقة. وهذا القانون أثار زوبعة كبيرة بين القوى الرجعية المتحالفة في جبهة كبيرة مع رجال الدين السنة والشيعة. ولعلي لا أبالغ إذا أشرت إلى حقيقة مهمة في ذلك الصراع، تتمثل في تعاون السنة والشيعة عن طريق زعاماتها الدينية مكونة حلفاً مقدساً لإسقاط الشيوعية وحكومة عبد الكريم قاسم. وكان مربط الفرس في تلك الحملة العاتية، التي تسببت في النهاية بإسقاط حكومة قاسم، إتهام الحكومة ومن ورائها الشيوعيين بالإلحاد ومخالفة القرآن الكريم الذي يعطي الرجل ضعف حق المرأة في الميراث ولا بد لي من التذكير بفتوى المرجع الشيعي السيد محسن الحكيم (الشيوعية كفر وإلحاد) حيث نعت نظام الحكم آنذاك بالشيوعية لذا أطلقت الدعوى لمحاربة الطرفين (نظام الحكم والحزب الشيوعي)، ولا أعلم ما علاقة حكومة قاسم وشخصه بالشيوعيين الذي أعلن عليهم حملة كبيرة من الاضطهاد وسجن الآلاف منهم في تلك الفترة.

ومن الإنجازات المهمة التي قدمتها الثورة بقيادة قاسم قانون (رقم 80) المتعلق بالثروات النفطية، حيث نص القانون على حرمان

الشركات النفطية من أكثر الأراضي العراقية الغنية بالموارد النفطية، وهذا ما أثار الشركات النفطية الأجنبية التي تحالفت مع حكوماتها ومع العناصر الرجعية في العراق لإسقاط حكومة قاسم وضرب منجزاتها، التي هددت مصالحها الحيوية في وطننا.

ومن الأمور المتعلقة باستقلال الثروة النفطية صدور قانون تشكيل شركة النفط الوطنية، التي أنيط بهبا استغلال وبيع النفط العراقي، كما كان لمبادرة حكومة قاسم في دعوة الدول المنتجة للنفط لإنشاء منظمة عالمية تعنى بشؤون النفط. وفعلاً تكونت منظمة (الأوبك) بعد الاجتماع المهم الذي عقد في العاصمة بغداد.

ومن يمكنه مخالفة حقيقة الإجراءات الوطنية التي قامت بها حكومة قاسم، فقد تم الخروج من حلف بغداد الاستعماري، الموجه لضرب حركات التحرر العربية في منطقة الشرق الأوسط، ومحاربة الاتحاد السوفيتي الصديق لحكومة عبد الناصر والحكومات الوطنية في العالم الثالث.

كما أن ما قامت به حكومة قاسم من خطوة للخروج من الكتلة الاسترلينية أثر بالغ في تقوية اقتصادنا وتدعيم سيادتنا الوطنية، حيث كان ارتباطنا بتلك الكتلة مصدر لضعف اقتصادنا وما يعتريه من ضغوط تتعرض له الكتلة الاسترلينية.

وهناك العديد من الإنجازات الوطنية، منها إصدار قانون الأحزاب الوطنية في العراق، والتي لم تُعرف سوى فترة قصيرة بعد

عام 1946 من نشاطها الرسمي. ولكن قاسم أجاز بعض الأحزاب، كالوطني الديمقراطي وحزب الاستقلال كما عمد إلى خطوة خاطئة بمنح إجازة لحزب شيوعي مفتعل بقيادة الصائغ. لظنه أن هذه الخطوة سوف تضعف الحزب الشيوعي العراقي ذو الجماهيرية الكبيرة في ذلك الوقت، كما امتنع عن منح الحزب الجمهوري بقيادة الأستاذ والمثقف الماركسي، وأحد مؤسسي حركة الأهالي الديمقراطية في أعوام الثلاثينيات (عبد الفتاح إبراهيم)، بدون مسوّغ شرعي سوى ما كان يضمره من عداء لليسار والشيوعيين في تلك السنوات.

ولا يمكن أن ننسى الفئة المسحوقة من مواطني خلف السدة والساكنين وسط نهر(شطيط) المجرى القذر الذي تمر به مخلفات المجاري، والمتسبب بمرض وموت أبناء تلك الفئة. مما كان من قاسم إلا وأمر بطمر هذا المجرى وفتح قناة (قناة الجيش) تجري فيها المياه العذبة. كما وقام بتوزيع الأراضي على تلك العوائل، وبناء بيوت حديثة وإن كانت صغيرة. وكان لقاسم وما زالت شعبية كبرى بين أبناء تلك الشريحة الكبيرة من مهاجري العمارة، والتي يطلق عليها تجاوزاً بعض السياسيين وأتباعهم (الشراكوة). كما كانت أعماله في توزيع أراضي بغداد على الجمعيات المختلفة لاسكان منتسبيها، هذه الخطوة الكبيرة التي أنعشت كثيراً الطبقة المتوسطة.

كان قاسم وطنياً لا خلاف على ذلك بالرغم من الاتهامات الباطلة حول عمالته للإنكليز. وكان من أبناء الطبقة البرجوازية

الصغيرة ولا يمكن لعسكري ينتمي بعقليته إلى تلك الطبقة مع وطنيته إلا أن يتصرف وفقاً لما تعلّمه وعرفه ومارسه في ذلك الوقت من نهاية خمسينيات القرن العشرين. ولابد لي من تقييمه موضوعياً وتأريخياً فبالرغم مما أنجزه من إصلاحات وقوانين جيدة إلا أن قاسم ارتكب أخطاء كثيرة أودت في النهاية بالجمهورية الوليدة.

منذ انتصار الثورة في 14 تموز بدأ الصراع واضحاً وجلياً في سبيل الحكم بينه وبين شريكه عبد السلام عارف. وكان قاسم يتصرف بطريقة أذكى من شريكه. حيث تركه يقوم بجولات مكوكية في المدن العراقية، مدلياً بتصريحات فجّة وغير ناضجة منها (سنقيم جمهورية خاكية إلهية) إلى غيره من الكلام الذي يدل على فجاجة تفكيره وعدم نضجه السياسي.

استغل قاسم هذا الوضع وبدلاً من أن يصلح خطوات شريكه عمل على إبعاده عن مراكزه المهمة في الدولة وبالأخير أرسله سفيراً إلى ألمانيا. التي لم يستطع عارف الاستمرار بتلك المهمة وعاد إلى بغداد ليُتهم بالتآمر على الثورة والحكم عليه بالإعدام من قبل محكمة الثورة. وبالنتيجة فقد عفا عنه قاسم.

كان لذلك الصراع أثره المباشر والمدمر في شقّ الحركة الوطنية، فقد سارت الجماهير خلف قاسم. وكان الدور الرئيسي بقيادة تلك الجماهير يعود للحزب الشيوعي صاحب الشعبية الكبيرة بينما توجهت القوى القومية مع حزب البعث خلف عبد السلام عارف،

ومن هنا بدأ الصراع. وكان قاسم سيء النية في إطلاق جماهير الحزب الشيوعي معتمداً على دعمها في الحكم. ولكنه سرعان ما تخلى عن الشيوعيين واليسار بعد ضرب القوى القومية وسجن زعمائها وإبعادهم عن المعترك السياسي.

ومن الأخطاء الأخرى التي ارتكبها قاسم حجب الرسمية والشرعية عن الحزب الشيوعي، الذي لعب دوراً هاماً وكبيراً في دعمه وترسيخ عبادة الشخصية لذلك الزعيم، كما كان يدعى (بالزعيم الأوحد) وتلك السياسة التي اعتمدها الحزب الشيوعي لم تكن تتلائم مع أفكاره ومبادئه في عبادة الشخصية. وكان تصور الحزب أنه يستطيع أن يحكم ويبني الاشتراكية بالتعاون مع عبد الكريم قاسم.

ومن الأخطاء الأخرى التي ارتكبها قاسم معاداته لشركائه بالثورة وابعادهم، بل بتصفيتهم بعدئذ. كما حصل مع الطبقجلي وغيره من القيادات العسكرية، التي لم يثبت تآمرهم على الثورة بل كان واضحاً أن قاسم كان يرمي إلى التخلص من تلك القيادات المهمة. بالرغم من تصريحه للمقربين منه أنه سيعفو عنهم. ومن المفارقات الغريبة أن قاسم عفى عمن وقف له في شارع الرشيد محاولاً اغتياله.

ولعل من أبرز ما قام به قاسم في هذا المجال إبعاده رفيقه في مجلس قيادة الثورة (الشواف) إلى الموصل لقيادة الموقع العسكري

هناك. وكان ذلك بمثابة الإبعاد والنفي لتلك الشخصية الوطنية المعروفة بتوجهاتها اليسارية. ولكن انقلب الأمر وجعل الشواف يتآمر مع البعث والقوميين ضد قاسم وحكومته في آذار 1959، مع دعم ومساندة عبد الناصر العسكرية والدعائية والسياسية. لكن دحر الإنقلاب أدى إلى نتائج كارثية ضد القوميين والبعثيين. قد تم ارتكاب جرائم بشعة في الموصل وكركوك ضد العناصر القومية والبعثية وعلقت بعض الجثث في شوارع الموصل، وارتكبت جماهير الحزب الشيوعي جرائم أخرى في مختلف مدن العراق وفي مختلف مرافق الدولة بمعرفة قيادة الحزب الشيوعي وأحياناً بتوجيهات منه. وكان لذلك السلوك الكارثي آثاره المدمرة على الحركة الوطنية. فقد أدت ردود الأفعال إلى جرائم دموية بعد انقلاب 8 شباط 1963. حيث تم تصفية المئات من قيادات الحزب الشيوعي وسجن الآلاف من أعضائه وأنصاره ولازالت آثار ذلك الإنقسام الدموي مستمرة حتى الوقت الحاضر.

وأخطر ما عمله خلال قيادته للثورة توجهه نحو حكم فردي دكتاتوري لا يؤمن بالجماهير وأحزابها ولا يؤمن بالسلوك الديمقراطي. ولعل خوفه من اليسار بقيادة الحزب الشيوعي جعله يرتكب خطأ قاتلاً في عدم توزيع السلاح على الجماهير المحتشدة أمام وزارة الدفاع والمطالبة بالسلاح خوفاً مما قد يعقب ذلك من محاولة السيطرة على السلطة، مدعياً أنه لم يكن يرغب في إشعال نار الحرب الأهلية.

وفي النهاية سقطت الجمهورية الوليدة نتيجة لأخطاء قاسم وعدم محاولته جمع الصف الوطني أمام المؤامرات الكبرى التي قادتها الولايات المتحدة وأنكلترا بالتعاون مع نظام عبد الناصر، الذي برز كأهم المعادين لنظام عبد الكريم قاسم.

إلا أن ذلك لا يمنعنا من اعتبار عبد الكريم قاسم واحد من أهم الوطنيين العراقيين، الذين وصلوا إلى حكم البلاد، وكان الرجل نزيهاً وعفيفاً وعمل على إصلاح بلدنا ولكن أخطاءه وأخطاء الأحزاب الموجودة في الساحة أودت بالجمهورية الوليدة. ولا زلنا نعاني من فرقة الأحزاب الوطنية في الوقت الحاضر ونحن نجابه حرباً طائفية وخارجية، واحتلال داعش لأراضينا.

محكمة الشعب – المهداوي

النجف بعد انتفاضة 1991

الدكتور حكمت محمد حسين شبر

تولد النجف الاشرف عام 1938م.

المؤهلات العلمية

1- تخرج كلية الحقوق عام 1958م - 1959م، بدرجة ليسانس.

2- حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة (لنينغراد)، عام 1966م.

3- تم تعيينه في كلية القانون - الجامعة المستنصرية عام 1968م.

4- حصل على درجة أستاذ مساعد (أ.م.د)، عام 1972م.

5- حصل على درجة الأستاذية (أ. د)، عام 1980م، ولكن تم سحب اللقب العلمي ونقله من الجامعة لعدم انتمائه لحزب البعث المنحل وتم استرجاعها في عام 2008م، أي بعد (28) سنة.

6- لم يخل بواجباته ووظيفته العلمية وأسلوبه التربوي والأخلاقي، ولجنة الانضباط التي كانت تحيل موظف الخدمة الجامعية لم تجد انه قد ارتكب شيئا في الوقت الحالي أو ذلك الوقت حتى فترة التقاعد.

7- مارس مهنة المحاماة سابقاً.

الجامعات التي تم التدريس بها

1- تدريسي مادة القانون الدولي العام وأصول القانون في الجامعتين المستنصرية ـ وبغداد 1968م - 1981م.

2- انتخب أستاذاً زائراً في جامعة كمبردج في المملكة المتحدة – بريطانيا، للعام الدراسي 1976م - 1977م.

3- رئيس قسم القانون الجنائي في المركز القومي للدراسات الاجتماعية والجنائية، التابع إلى وزارة العمل والشؤون الاجتماعية سابقا، لمدة سنة واحدة والملغاة في وقت الحالي.

4- درس في الرباط - المملكة المغربية (المغرب)، في جامعة محمد الخامس كلية الحقوق والاقتصاد والاجتماع السويسي، لقسم القانون، في عام 1985م - 1989م.

5- تدريسي طلبة الدكتوراه في القانون جامعة ـ صلاح الدين للعام 2004م ـ2005م.

6- عضو اللجنة التأسيسية لكلية الدراسات الإسلامية / جامعة الكوفة.

7- عضو اللجنة التأسيسية لقسم القانون في كلية الفقه الجامعة التابعة لجمعية منتدى النشر في النجف الاشرف.

8- عميد الكلية الإسلامية الجامعة في النجف 2004م - 2005م.

9- عميد معهد العلمين للدراسات العليا الماجستير والدكتوراه في القانون والعلوم السياسية في النجف الاشرف من 2008م، وإلى 2011م.

10- وعمادة (كلية القانون) لـ (جامعة هاولير) في اربيل – العراق، لسنة دراسية وكانت في عام (2011م - 2012م)، وأيضا من ضمن اللجنة والهيئة التأسيسية.

11- أشرف وناقش عدداً من الرسائل في الجامعات ومنها المستنصرية وبغداد ومعهد العلمين للدراسات العليا في القانون والسياسة وجامعة صلاح الدين، وفي جامعات إقليم كردستان.

العضوية

شارك في العديد من المؤتمرات والندوات والبحوث داخل وخارج العراق وعضوية المجلات والبحوث والندوات ومنها:

1- عضو الهيئة الاستشارية القانونية لمجلة (حولية المنتدى)، والمعروف أنها مجلة علمية محكمة تصدر عن المنتدى الوطني لأبحاث الفكر والثقافة في النجف الاشرف.

2- عضو الهيئة الاستشارية لـ (مجلة كلية الدراسات الإسلامية)، وهي مجلة فصلية علمية محكمة تصدر عن كلية الدراسات الإسلامية - جامعة الكوفة.

3- عضو الهيئة الاستشارية لمجلة (مجلة العلوم القانونية)، مجلة علمية محكمة نصف سنوية، تصدرها كلية القانون - جامعة بغداد.

4- عضو مجلة وجريدة (كلية الجامعة الإسلامية)، في النجف الاشرف في فترة تأسيسها.

5- عضو مستشار التقرير الستراتيجي العراقي الثاني، مركز حمورابي للبحوث والدراسات الإستراتيجية، المطبعة العصرية، ط1، 2009م.

6- عضو اتحاد الكتاب والأدباء في العراق، 2015م.

كتب القانون والعلوم السياسية

1. القانون الدولي العام «دراسة مقارنة في الفقهين الاشتراكي والرأسمالي»، بغداد – العراق، ط1، 1975م، المكتبة القانونية شركة العاتك لصناعة الكتاب، القاهرة – مصر، ط2، 2009م، وهو كتاب منهجي درس في كلية القانون لسنوات وفي عام 1980م، احرق هو والكتاب الذي يليه في ساحة جامعة المستنصرية.

2. الجوانب القانونية لنضال الشعب العربي من أجل الحرية والاستقلال، 1974م، دار الحرية للطباعة، بغداد العراق، وليعاد طباعته بزيادة وتنقيح (شركة العارف للمطبوعات)، بيروت – لبنان، في سنة 2011م. بعنوان: (النضال العربي من أجل الحرية

والاستقلال)، (على الغلاف)، وعرض: احمد عبد الرحيم فاضل الساعدي في جريدة (المواطن).

3. السيادة في عالم متغير، منشورات مكتب الفكر والتوعية في الاتحاد الوطني الكردستاني، ط1، ط2، 2006م، 2007م.

4. الحروب العدوانية وما أفرزته من قروض وتعويضات بحق العراق، طبع: مطبعة الشهيد آزاد هورامي، من منشورات مكتب الاعلام المركزي للاتحاد الوطني الكردستاني، بتسلسل (67)، العراق – كركوك، 2008م، دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط1، 2009م.

5. السيادة العراقية وشركة بلاك ووتر، العارف للمطبوعات، ط1، 2011م.

6. المحاكم الدولية وقضايا الإرهاب «العراق نموذجاً»، بيروت – لبنان، العارف للمطبوعات، ط1، 2011م.

7. أزمة حصانة الجنود والمتعاقدين الأمريكان في العراق، كراسة إستراتيجية، بتسلسل (9)، نشر وتقديم: مركز حمورابي للبحوث والدراسات الإستراتيجية، المطبعة العصرية، ط1، 2011م.

8. المعاهدات غير المشروعة في القانون الدولي، تقديم النائب والوزير السابق السيد الدكتور إبراهيم بحر العلوم، الناشر مركز النجف للثقافة والبحوث، مطبعة الرائد، النجف الاشرف – العراق، ط1، 2009م.

9. الاتفاقية الأمنية العراقية الأمريكية إلى أين؟ والكتاب في زمن كان عميد معهد العلمين للدراسات العليا، وليطرق على أسماع الطلبة من منهج أو قضية معاصرة – كانت في وقته حديث الشارع .

.10دور الجزاءات في القانون الدولي.

11. بحوث في القانون والسياسة، بيروت – لبنان، العارف للمطبوعات، ط1، 2016م.

البحوث المترجمة

يجيد اللغة: (الروسية، والانكليزية)، لتكون هذه القابلية والكفاءة لأعداد أنظمة من البحوث والترجمة الإستراتيجية وبمختلف المستويات ومنها القانونية والسياسية فكانت:

1. مبدأ حق تقرير المصير في القانون الدولي.

2. الشكل القانوني للنفوذ الاستعماري في البلدان العربية، (مجلة) الدراسات الفلسطينية.

3. مشاكل رأسمالية الدولة في البلدان النامية/بقلم: يو – ف روزاليف، (مجلة)، (القضايا التاريخية)، العدد الثامن، 1974م، موسكو، إصدار (دار الحقيقة)؛ والذي نشره أيضا في الفصل الأخير من (كتاب)، محطات تستحق التوقف عندها «سنوات المواجه والتحدي»، (رواية)، بيروت – لبنان، العارف للمطبوعات، ط1، 2014: ج (2).

4. قرار اعتبار الصهيونية من أشكال التمييز العنصري، (مجلة) القانونية والسياسة، العدد الأول / 1976م، دار الحرية للطباعة – بغداد، ص 229–248، عدد الصفحات (22).

5. اتفاقية كامب ديفيد، (مجلة) الدراسات الفلسطينية.

6. العدوان الإسرائيلي والقانون الدولي، عن اللغة الروسية، ي. ببلشنكو وكورد فيست، العراق بغداد، مطبعة الشعب. (كتاب)

7. أسطورة إسرائيل الكبرى ـ عن اللغة الروسية، (مجلة) الدراسات الفلسطينية.

8. حرب أكتوبر، نشر في الصحف الروسية باللغة الروسية.

9. (الفيتو الإسلامي)، باللغة الكردية لمجلة علمية محكمة والتابعة لـ (اتحاد الأدباء الكورد) في محافظة (دهوك).

10. القضايا العربية في الأمم المتحدة، والكتاب أطروحة دكتوراه باللغة الروسية.

وتراجم أخرى عن وإلى اللغة الروسية والانكليزية، وفي المراكز ومنها مركز الدراسات الفلسطينية.

المقالات والدراسات القانونية والسياسية في الصحف والمجلات في داخل وخارج العراق:

1. من هي الأمم المتحدة، جريدة (المواطن)، العدد (1148)؛ جريدة (البينة الجديدة) العدد (2252)، الثلاثاء 2015/6/2م، الصفحة 8، صفحة شؤون عراقية، (ج: 1).

2. كيف نشأت الأمم المتحدة، جريدة (المواطن)، العدد (1149)، (ج: 2).

3. المبادئ التي قامت عليها الأمم المتحدة، جريدة (المواطن)، العدد (1168)، جريدة (البينة الجديدة)، العدد (2219)، 13/ 4/ 2015م، ص (7)، (ج: 3).

4. الأمم المتحدة والعالم الثالث، (ج: 4).

5. موقف الأمم المتحدة من جريمة الإرهاب، (ج: 5).

6. الفيتو الإسلامي، في جريدة (البينة الجديدة)، في العدد (2246)، في 2015/5/25م، الصفحة (4)، (ج: 6).

7. الأمم المتحدة والسلام العالمي، جريدة (البينة الجديدة)، العدد (2281)، الاثنين 2015/7/13م، الصفحة (4)، (ج: 7).

8. ماذا نريد من الأمم المتحدة – جريدة (الاتحاد)، (ج: 8).

9. هل يمكن إصلاح الأمم المتحدة – جريدة (الاتحاد)، (ج: 9).

10. أحكام الحضانة – دراسة مقارنة في القوانين العربية، مجلة مركز البحوث الاجتماعية والجنائية، التابع لمركز القومي للدراسات الاجتماعية والجنائية.

11. الإسلام والإرهاب، جريدة (الزمان)، العدد (5042)، الخميس 13جمادي الأولى، 2015/3/5م، الصفحة (14)، ج: (1)

جريدة (الزمان)، العدد (5043)، السبت 15جمادي الأولى 3/7/ 2015م، الصفحة (14)، ج: (2)، صفحة دراسات.

12.الثروات المعدنية في ظل الدستور الجديد - جريدة (الاتحاد)، 2008م.

13.حقوق المرأة والقواعد الآمرة - جريدة (الاتحاد)، 2008م.

14.الدستور وكيفية أعداد الدبلوماسي - جريدة (الاتحاد)، 2008م.

15.السيادة وحصانة الجنود الأمريكان في العراق، جريدة (المواطن)، العدد (791).

16.السيادة وحصانة الأمريكان في العراق، مجلة (القضاء)، تصدر من نقابة المحامين العراقيين، السنة الثانية والثمانون، الأعداد (الأول والثاني والثالث والرابع) الصادرة في مجلد عام 2015م.

17.عقوبة الإعدام بين الإبقاء والإلغاء - دراسة قدمت للندوة التي إقامتها الكلية الإسلامية الجامعة - في النجف الاشرف، بعنوان (بحوث ومداخلات ندوة السياسة الجنائية بعد التغيير السياسي في العراق)، ومقدمة الندوة من (وحدة الدراسات والبحوث)، 18/مايس، 2005م، جريدة (البينة الجديدة)، العدد(2206)، الأربعاء 3/25/ 2015م، صفحة ما وراء الحدث، الصفحة (13)، ج: (1)، جريدة

(البينة الجديدة)، العدد(2207)، الخميس 3/26/ 2015م، صفحة ما وراء الحدث، الصفحة (12)، ج: (2).

18.الفيدرالية والدستور - فيدرالية الفرات الأوسط «دراسة قدمه لمؤتمر فيدرالية الفرات الأوسط التي أقامتها الكلية الإسلامية الجامعة ميسان 2005م».

19.القواعد الآمرة في القانون الدولي «دراسة مقارنة»، مجلة القانون المقارن العراقي، العدد (10)، بغداد – العراق، 1979م.

.20الكرد والمادة (140)، من الدستور العراقي.

21.مشروع الاتفاقية الأمريكية العراقية من منظور القانون الدولي، لملف القانون وحقوق الإنسان (منسق المحور) عن معهد العلمين للدراسات العليا، التقرير الستراتيجي العراقي الثاني، نشر وتقديم: أ د. عبد علي كاظم المعموري، مركز حمورابي للبحوث والدراسات الإستراتيجية، المطبعة العصرية، ط1، 2009م.

22.المعاهدات وكيفية انعقادها وتطبيقها في ظل الدستور الجديد - جريدة (الاتحاد)، 2008م.

23.ملاحظات أولية حول مشروع الاتفاقية الأمريكية العراقية، جريدة (المواطن)، العدد (689).

24. هل توقف التاريخ عند بوابات العراق ـ جريدة (الاتحاد)، 2008م.

25. وحدة القانون ووحدة المحاكم أهم ملامح السيادة الوطنية.

26. الولاء وتعدد الجنسية في ظل الدستور الجديد - جريدة (الاتحاد).

27. الدستور والنظام الفدرالي، جريدة (البينة الجديدة)، صفحة -مدارات - العدد (2299)، الخميس 13/8/ 2015م، ص (4).

28. أحكام الجزاء في قوانين الأمم المتحدة ومحكمة الجنايات الدولية، جريدة (البينة الجديدة)، ج (1-2)، صفحة - مدارات - الأربعاء، أيلول، 2015م، ص (4).

29. القضية العمانية وإعلان الجمعية العامة الخاصة بإلغاء الاستعمار، مجلة القانون المقارن، العدد (3)، السنة (4)، 1970م، العراق – بغداد، كلية القانون والسياسة، 212-236، عدد الصفحات (25).

30. مأساة النازحين، جريدة (البينة الجديدة)، صفحة - مدارات - العدد (2318)، الأربعاء 9/9/ 2015م، ص (4).

وعشرات المقالات السياسية والقانونية وفي مختلف المجالات الأخرى ومنها مجلة (مركز الدراسات الفلسطينية)، التي كانت بتولي الأستاذ الدكتور علي درويل الجبوري، كتب في العددين (الأول)، و(الثاني)، في عام 1973م، مقرها الحالي الموصل بعدما كانت في بغداد.

حيث قرأه الأدب الروسي والانكليزي ولشخصيات عراقية وعربية وعالمية.

لذا فقد كانت من ضمن اهتماماته كتابة الشعر والنثر، وفي إعداد متفرقة من الصحف والمجلات، ومنها في مجلة (التراث النجفي). وجريدة (الزمان)، و(دليل النجف)، و(الجامعة الإسلامية)، و(الاتحاد: بـ 40 قصيدة)، (العراق اليوم)، و(البينة الجديدة)، وكانت:

- إلى ليلى الأيزيدية - شعر - (الزمان) صفحة (ألف. ياء)، يوم الثلاثاء 2015/3/3م.

- ساعة الحسم - شعر- (التراث النجفي) مجلة شهرية ثقافية تعنى بالأدب والتاريخ والتراث العراقي والنجفي منه بالخصوص، العدد (50)، لرئيس التحرير: رشيد القسام، ص (85).

- اغتصاب في الموصل - شعر - (دليل النجف)، العدد (82)، في 19 شباط/ 2015م، الصفحة (3)، للمشرف العام ورئيس تحريرها: د. حيدر نزار السيد سلمان.

- حزن العراق السرمدي - شعر - (العراق اليوم)، العدد (2151)، في يوم 2015/5/10م، ص (7).

- قطعة من حياتي الحاضرة - شعر - (الزمان)، صفحة (ألف. ياء)، العدد (5156)، يوم الخميس 2015/7/16م، الصفحة (10).

- تقلبات الزمان - شعر - (الزمان)، صفحة (ألف. ياء)، 2015م، الصفحة (10).

- ربيع بغداد - شعر - (البينة الجديدة)، صفحة (الثقافية)، العدد (2302)، الثلاثاء 18/8/ 2015م، الصفحة (16).

- قدر العراق - شعر - (البينة الجديدة)، صفحة (الثقافية)، العدد (2313)، الأربعاء 2/9/2015م، الصفحة (16).

- محنة النازحين - شعر - (البينة الجديدة)، صفحة (الثقافية)، الأربعاء، أيلول 2015م، الصفحة (16).

القضايا المعاصرة والتاريخية والمذكرات والخاصة في الصحف والمجلات

- جيفارا - ارنستو تشي - مجلة (الفكر الجديد)، لبنان – بيروت، في سبعينيات القرن الماضي.

- العلاقات الجدلية بين النجف والأخوة الكرد - جريدة (الاتحاد)، 2009م.

- أنا وبغداد، جريدة (الزمان)، ج: (1)، العدد (5098)، 2015/5/10م، الصفحة (9).

- أنا وبغداد، جريدة (الزمان)، ج: (2) 2015م.

- أنا وبغداد، جريدة (الزمان)، ج: (3).2015م.

- الشهادة - حول ثورة (14) تموز وقادتها في العراق عام 1985م، موقع في الانترنت.

دواوين الشعر

1. جمرات الغضب، من تصميم وطبع شركة المارد العالمية، النجف الاشرف – العراق، 2008م. -كتب قصائد هذا الديوان بعد فصلة السياسي من الجامعة في بدايات ثمانينات القرن الماضي -

2. زفرات شيخ، بيروت – لبنان، العارف للمطبوعات، ط1، 2009م.

3. عراق حبيبي، بيروت – لبنان، العارف للمطبوعات، ط1، 2013م.

4. ذكوة الذئاب، مطبوع محدود التداول من الشعر السياسي.

كتب السيرة والقصة والمذكرات

1- الحنين إلى ينابيع الحب - (رواية)، السليمانية – العراق، ط1، 2008م؛ والطبعة (العارف للمطبوعات)، الاولى، في 2009م.

2- محطات تستحق التوقف عندها (رواية)، بيروت – لبنان، العارف للمطبوعات، ط1، 2011م، والطبعة الثانية: الجزء الاول، (سنوات الطفولة والصبا)، المكتبة الحديثة بيروت، 2011م.

3- محطات تستحق التوقف عندها «سنوات المواجه والتحدي»، (رواية)، بيروت – لبنان، العارف للمطبوعات، ط1، 2014: ج (2).

4- محطات تستحق التوقف عندها «انا وبغداد»- مرحلة الدراسة -القسم الاول (رواية)، بيروت – لبنان، العارف للمطبوعات، ط1، 2016م، ج (3). - الكتاب الذي بين يديك -

5- محطات تستحق التوقف عندها «انا وبغداد» - مرحلة التدريس - القسم الثاني(رواية)، ج (4).- تحت الكتابة -

6- عيون السود «رواية».

7- حدث في يوم الحب (رواية). - تحت الطبع -

وأيضا مقابلات ادبية وشعرية منها بعنوان: (الشعر الكلاسيكي لم يفقد أدواته في التعبير عن الواقع والحياة)، في جريدة (الاتحاد)، ومقابلات في جريدة (الجامعة الإسلامية)، و(المواطن)، وعشرات المقابلات السياسية والقانونية والتاريخية.